علي بابا الأمين وقصص أخرى

قصص شيِّقة للأطفال ونصائحُ تربويّة للأسرة

عبد العزيز آدم

عضو الاتحاد العالمي للصحة النفسية

آدم، عبد العزيز.

علي بابا الأمين وقصص أخرى. تأليف/ عبد العزيز آدم.

التصنيف: مجموعة قصصية للنشء.

21 سم، 109 ص.

تدمك: 9789776916425

التدقيق اللغوي: د. مريم عبد الجواد

الإخراج فني

يوريكا لخدمات النشر والتوزيع

تصميم الغلاف: بلال محمد

EUREKA
Eureka4publishing
حلّق خارج السرب

01288627690

eureka4publishing@gmail.com

الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2021/25547

جميع الحقوق محفوظة و يحظر طبع أو تصوير أو تخزين أى جزء من الكتاب بأية وسيلة من وسائل تخزين المعلومات إلا بإذن كتابى صريح من الناشر

إهداء

إلى أبي

مَن رباني على المعنى الحقيقي للحلال والحرام والكفاح بشرف

إلى أمي

التي علمتني أن جبر الخواطر ومحبة الناس هي رزق لا يضاهيه

كنوز الأرض جميعًا

رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً

مقدمة

تتشـكَّلُ أخلاقيـاتُ أبنائنـا وخبراتهـم مِـمّا يسـتقونه مـن حكايـات وأمثلـة نسردهـا لهـم منـذ نعومـة أظافرهـم، ومـا نَعُـدُّهُ نحـن ضربًـا مـن ضروب التسـلية والمتعـة لديهـم، إنمـا هـو في الحقيقـة أحـد الأسـاليب التربويـة التي ترسـخ في ذاكرتهـم، عِلـمًا أنَّ ذاكـرة الطفـل متَّقـدة، تتقبـل كل ما يُمـلى عليها بسلاسـة غريبـة، وتسـجيل مُحكـم لـكلّ حـدثٍ عـلى عِلَّتِـهِ، بغـضِّ النظـر عن كَـون مـا يسـتقونه من تلـك الخـبرات سـلبيًّا أو إيجابيًّا، هو ينعكس بشـفافية عجيبـة على سـلوكهم؛ وبهذا تتشـكل سـيكلوجيَّةُ الأطفال تبعًـا للطريقة التي نسـتخدمها لتعريفهـم عـلى الحياة وتشـكيل خبراتهم منذ المهـد، دعمًا لمبادئَ وقناعـاتٍ وخـبراتٍ تشـكَّلت بهـا -من قبـل- حياتُنـا وصفاتُنا.

إنَّهـا الرسـالة التـي نتناقلهـا، جيـلٌ بعـد جيـل، والاختيـار دائمًـا يعـود إلينـا، وبمحـض إرادتنـا يكـون الاختيـارُ بـين الفضيلـة والانحـدار، إن كانـت الرسـالة التـي سـنختار وصولهـا إلى الأجيـال مِـن بعدنا هي رسـالة خير وقيـم والمبادئ العُليا، أو كانت رسـالة مشوَّشـة مشـوَّهة، ظاهرها التشـويق والمتعة، وباطنها الهـدم لقيـم راسـخة لا ينبغـي أبـدًا المِـساس بهـا، وتوصيلها بصورةٍ مشـوَّهةٍ مهـما كان المقصد.

وبهذا تكون سـلوكيات الأبناء وتوجهاتهم ما هي إلا جملة الخبرات المكتسـبة التـي يتأثـرون بهـا ويقتـدون من خـلال تصرفـات الآبـاء وأسـاليبهم التربويَّة، إيجابيـةً كانـت أو سـلبيةً. وهنـاك جانـب آخـر ربمـا لا يقـلُّ خطـورةً عن دور

الأسرة في تنشئة الأبناء وتهذيب أخلاقهم؛ لأنه -بكل سهولة- إحدى الوسائل المهمة التي تستخدمها الأسَر في التواصل مع الأبناء لتعليمهم وتهذيبهم، هذا الجانب يتمثل في ما يُعرَضُ على الأطفال من قصص بهدف التسلية والعِظة والتَّعلُّمِ في آنٍ واحد. وتأثر الأطفال بالقصص التي يقرؤونها أو التي تُروى لهم، أو التي يشاهدونها، هو أمر بالغُ الخطورة من الجانبين النفسي والسلوكي، وهو ما يجعلنا ندقُّ ناقُوس الخطر حينما نرى القصص التي تُروى بغرض التسلية، ولكنها تفتقر إلى الحد الأدنى من الرقابة والأخلاقيَّات القويمة التي نطمح إلى أن نربيَ أبناءنا عليها. الكثير من هذه القصص تحضُّ على الكذب مثلًا، ومنها ما يشجع على أكل المال الحرام، وعدِّهِ رزقًا طيِّبًا وهبَه اللهُ رجلًا طيبًا، ومنها ما يحضُّ على التَّواكُل وانتظار المعجزات مُتمثِّلةً في خوارقَ لا وجود لها في الواقع، ومنها ما يروِّج للفهلوة والاحتيال كوسيلة للوصول لمنصبٍ، أو الهروب من مشكلة، أو الفوز بقلب أميرة حسناء. كل هذه القصص المشوَّهة هي مجرَّد أمثلة مُخزية لقصصٍ عكفنا على تلقينها أبناءنا ليلَ نهارَ دون أن يكون لدينا أيَّةُ دِرَايةٍ بمدى خطورة أثرها النفسي السلوكي في أخلاقيات أبنائنا وثقافاتهم وسلوكياتهم وتوجهاتهم.

في هذه القصص الثلاث، حاولتُ جاهدًا أن أُعيدَ روحَ الفضيلة والخُلق الطيب والفكْر البنَّاء إلى قصص الأطفال، معتمدًا -بشكل أساسي- على توفيق الله أولًا، ثم دراستي للجانب النفسي للطفل، وقد عكفتُ على إعادة صياغة بعض القصص المشوَّهة التي نقصُّهَا كثيرًا على أبنائنا، وحاولتُ -بجهد- أن أحتفظَ بالقالب والإطار الأساسيْنِ لهذه القصص، مع إعادة

صياغة أحداثها بشكل جذري، متخذًا الهدفَ من هذه القصص نبراسًا يضيء جَنَباتِ أحداثها، ويرسمُ في وضوحٍ الهدفَ الأسمى والرسالة الطيبة مِن وراء سرد هذه القصص، مع الاحتفاظ بعنصريِ الجذب والتشويق طِيلةَ أحداثها.

ستجدُ بعضًا من هذه السلسلة يُشابه قصصًا معروفة، مثل قصة «علي بابا والأربعين حراميًّا»، لكن بأحداث مختلفة لا يُحَلُّ فيها الحرام، أو تَجعل من الكسل والتَّواكل وسيلةً للكسب والنجاح، وأخرى جديدة حاولت فيها تناوُلَ فضيلة وخُلق معيّن يصل إلى المتلقي بسلاسة ويسر ورسالة جَليَّة.

وستجدون في نهاية كل قصة تعقيبًا يُلخِّص الهدف منها، السلوك المراد معالجته أو تعضيده، مع وضع بعض الحلول الجذرية للسلوكيات المشوَّهة الشائنة، بالوقوف على أسبابها والوصول إلى طرق ناجعة لعلاجها.

هذه السلسلة موجَّهة للطفل والأسرة معًا، ولا تخلو من عنصر التشويق لجذب الطفل وتسليته وتعليمه وتهذيبه في آنٍ واحد، وهي أول سلسلة قصص تتناول القصص الشهيرة المشوَّهة بالنقد والتحليل من خلال إعادة صياغتها وسردها بالشكل الذي يبني لا يهدم، ويعضد الخُلق القويم الذي يفتقر إليه كثير من القصص الشهيرة المتداولة.

أرجو من الله أن تجدوا هذه القصص شيِّقة مفيدة للأسرة والطفل كليهما، وأن يجد فيها الآباء بعض الرسائل الإرشادية التربوية المهمة التي تعينهم على تربيةِ نشءٍ يفتخرون به سلوكًا وأخلاقًا، وأرجو أن يصل ما في هذه المجموعة القصصية -من رسالة سامية- إلى قلوب أبنائنا المتلقين وعقولهم.

(١)
علي بابا «الأمين» والأربعون حراميًّا

في قديم الزمان في بلاد بعيدة،كان يعيش حطَّاب طيّب اسمه «علي بابا»، مع أسرته: زوجة، وابن وحيد. «علي بابا» كان شخصًا بسيطًا في كل شيء، محدودًا في تطوير نفسه، بعناءٍ يكسب قُوت يومه، وكان أمينًا بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى، له أخ اسمه «قاسم»، شخصٌ ناجحٌ غنيٌّ يأخذ بالأسباب لكي يصلَ إلى أعلى درجات الثروة، لكنه كان بخيلًا لدرجة تصل إلى الشُّحِّ، ولَم يُقدِّمْ يدَ المساعدة إلى أخيه «علي بابا» رغم حاله الذي لا يخفى على أحد، وقد كان «علي بابا» مُقصِّرًا في حق نفسه، فبدلًا من أن ينتظر العطف والمساعدة من أخيه أو أيِّ شخص آخر، كان يجب عليه أن يعملَ بكل جِدٍّ، وأن يطرُق أسباب الرزق ليصل إلى درجة من الغِنى مقبولةٍ، تهيّئ له أقلّ أسباب الحياة الكريمة. «علي بابا» اختار أن يعملَ حطَّابًا، وهذا ليس عيبًا، إنما تمثَّل تقصيره في استمراره على هذه الحال سنوات طويلة، دون أن يفكِّرَ في السعي إلى تحسين حاله أو أن ينمِّي تجارته، ورغم طِيبة «علي بابا» وأمانته إلَّا أنَّه كان كسولًا متواكلًا منتظرًا للعون والشفقة من أخيه وغيره.

عندما ضاقت السبل به، وكثرت عليه الديون قصد باب الكريم، وذهب ليحتطب وهو في همٍّ شديد، داعيًا اللهَ أن يرزقه ببركة سعيه على رزقه

وقُوت زوجته وولده. وبينما هو في همِّه يفكر وفِي الوقت نفسِه يبحث عن مكان مناسب ليجمع منه أكبرَ قدرٍ من الحطب، أخذته قدماه إلى مكان جديد، به رزقٌ وَفيرٌ وحطب كثير، وسمعَ -وهو يجمع الحطب- همهمةَ جمعٍ كبير من الناس، آتيةً من بعيد، ظنّها أولَ الأمر قافلةً.

قال علي بابا في نفسه:

- تبدو هذه قافلةً كبيرة، سوف أجرِّب حظيَ معهم، لعلَّهم يبتاعون مني الحطب إن كانوا بحاجة إليه.

أخذَ يقتربُ الصوتُ شيئًا فشيئًا، ولَمَحَهم «علي بابا» من بعيد:

- ولكن مهلًا.

قال علي بابا في نفسه:

- ما كل هذه الأسلحة التي يحملونها؟ هذه ليست هيئة تجّار، وما يحملونه لا يبدو أنه بِضاعة، ولا يبدو عليهم وَعثاء السفر، لا أظنهم إلا مجموعة من اللصوص الذين تسبَّبُوا في السرقات الأخيرة المتكررة على أهل البلدة.

زاد خوف «علي بابا»، واختبأ في مكان آمن وسطَ الغابة وحرص أن يراقب تحركاتهم، وقال في نفسه:

- لو كانوا لصوصًا فسأحدِّد مكانهم لأخبر كبير العَسَسِ «الشرطة»، ولو كانوا تجَّارًا فسأعرض عليهم شراء بعض الحطب.

اقترب الصوت أكثر، ووضحتْ هيئة الرجال، وكان عددهم أربعينَ، إضافةً إلى كبيرهم، وكلما اقتربوا أكثر من «علي بابا» زاد يقينًا أنَّهم ليسوا إلا

مجموعة من اللصوص الأشرار.

مضَوْا مِن أمام «علي بابا» الذي حرص على التخفِّي ومتابعتهم من بعيد دون أن يشعروا بوجوده، وبعد ساعةٍ من المسير المتواصل و«علي بابا» يرتجف خوفًا من أن يلمحه اللصوص فيفتضح أمره، توقَّف الجمع فجأة أمام صخرة كبيرة في عمق الغابة، وقال كبيرهم بصوت عالٍ أَجَشَّ:

- افتح يا سمسم.

وتحرَّكت الصخرة بشكل عجيب،كل هذا يحدث و«علي بابا» يشاهد في ذهول، وما كانت هذه الصخرة إلا بابًا لمغارة كبيرة، سمعهم «علي بابا» قبل دخولهم المغارة وهم يتحدثون عن سرقتهم لأحد كبار التجار، «سمعان» الذي يعرفه «علي بابا» جيدًا.

وهنا تأكد «علي بابا» مِن أنّ هؤلاء هم عصابة اللصوص المسئولين عن السرقات المتكررة في بلدته، وكان «علي بابا» قد قام بربط علامة من القماش بالشجرة الموجودة أمام الصخرة ليسهِّلَ عليه الوصول إليها لاحقًا، وبعد ساعة من دخول العصابة إلى المغارة خرجوا جميعًا، وقد فرغت حمولة البعير والإبل في المغارة، وسمعهم يخططون لسرقتهم التالية، وتعجَّب حينما سمعهم يخططون لسرقة بيت أخيه «قاسم» بعد الفجر، وكانت خطتهم أن يقومَ كبيرهم بدور تاجر للعسل، حاملًا معه أربعين جَرَّةً كبيرة، في كل جرَّةٍ لصٌّ مسلَّح، وقد غُطيت أفواه الجِرار بقليل من القشّ لتُخفي اللصوص وتمكّنهم من التنفس؛ ليحتال بذلك على حرَّاس المدينة ويدخل هو واللصوص دون أن يفتضح أمرهم، وقبل انصرافهم قال

كبيرهم:

- أَغلقْ يا سمسم. فتحركَّت الصخرة على الفور، وعادت إلى وضعها الأول لتغلق باب المغارة.

بعد رحيل اللصوص قلقَ «علي بابا» على أخيه، وقرَّر أن ينبِّهَه بأسرعِ ما يمكن، لكنْ قبل هذا -لفُضوله- ذهب ليتأكد كيف يُفْتَح باب المغارة، ويتأكد أن المسروقات موجودة بالفعل في هذا المكان! حاول فتح باب المغارة جاهدًا، ولَم يتمكَّن من تحريك الصخرة التي تحميها قيدَ أنملةٍ، لكنه تذكَّر، وقال في نفسه:

- نعم، صحيح، قد سمعتُ كبير اللصوص يقول: «افتح يا سمسم» بصوت عالٍ، سأجرِّب ذلك!

فقال «علي بابا» بصوت عالٍ:

- «افتح يا سمسم».. فُتِحَ الباب بعدها تلقائيًّا، وخاف بشدّة من هول المنظر، وقال في قرارة نفسه: هؤلاء اللصوص يستخدمون السحر لحماية مسروقاتهم، ومن العجيب أنهم لم يتركوا حارسًا واحدًا لحراسة مسروقاتهم! وهُنا عزم على استطلاع المغارة من الخارج ليَسلمَ من أذى أيِّ سحرٍ مُحتمل إذا دخل المغارة، وكان بالفعل يسمع همهماتٍ مخيفة؛ وهذا ليس جُبْنًا منه، إنما هو الاختيار الصواب، عدم إلقاء نفسه في تَهلكة مجهولة! بينما هو في أوج توتُّره لمحَ «علي بابا» الكثير من الذهب والياقوت والمَرجان والنقود والحُليِّ التي لم يستطع إحصاءها، وهنا عزم على أن يفعل ما يجب عليه فعله، فقد قرَّر أن يقومَ بواجبه لتعود المسروقات إلى أصحابها،

وتذكَّر كيف يغلق باب المغارة بقوله: أغلقْ يا سمسم.

رجع «علي بابا» مُسرِعًا إلى قريته، وكان -وهو في طريق العودة- يضع علامةً على الأشجار بفأسه، حتى وصلَ إلى مكانه الأول حيث كان يربط حمارَه.

ركب «علي بابا» حماره، وفي طريق عودته ترك همومه جانبًا، ونسيَ تعجبه من أمر اللصوص الأربعين، وأَمْرِ الصخرة المرصودة لحراسة مغارتهم العجيبة التي يحتفظون فيها بالمسروقات، ترك كل هذا وبدأ يخططُ لما يجب عليه فعله بشكل فوري.

قال علي بابا في نفسه:

- حدَّ الله بيني وبين الحرام، مهما كان احتياجي فلن تُسوِّلَ لي نفسي أن أستحلَّ دينارًا ولا قطعةَ ذهب واحدة من الذهب المسروق في هذه المغارة؛ فهذا المال ليس لي ولا للّصوص، إنما هو حقٌّ لمن تعب فيه وجمعه بعد جهد وعناء.

وتذكَّر كيف كان صديقه التاجر «محمود» يبكي بعدما سرق اللصوص كل ذهبه وتجارته وماله، وتذكَّر أيضًا أمّ البنين؛ هذه الأرملة التي مات زوجها التاجر تاركًا لها دُكّانًا تقتاتُ منه هي وأولادها الأربعة الأيتام، وكيف كَره «علي بابا» الفقرَ في ذلك اليوم؛ لأنه تمنى أن يساعدها وهي تبكي نحيبًا بعد أنْ سرقَ اللصوصُ دكانَها كاملًا وأحرقوه، لقد تذكَّر العديد من حوادث السرقة التي حدثت في مدينتهم، من لصوص لا قلب لهم ولا ضمير، ولا يُهمهم إلا الذهب والمال مَهما كان مصدره، وقرَّر ما يجب عليه فعله.

فقد قرَّر ــ أولًا ــ أن يذهب لبيت أخيه «قاسم»، هو يَبخل عليه، إلا أنَّه أخوه الذي لا يرضى أبدًا أن يُسرَقَ ماله، أو أن يرى به أيّ سوء. مُهَرولًا ومتصببًا بالعرق بعد رحلة طويلة وقفَ على باب قصر أخيه، ورجا الحرّاسَ أن يُبلغوا أخاه أنه في حاجة لمُلاقاته بشكل عاجل.

علي بابا:

- أيُّها الحارس الطيب، اذهب وأبلغ سيدك «قاسم» أني أريد ملاقاته بشكلٍ عاجلٍ.

الحارس:

- حسنًا سيدي «علي بابا»، أستاذنك أن تبقى هنا رَيْثَما أُبَلِّغُ سيدي «قاسم».

دخل الحارس على «قاسم» وكان يتناول عشاءه...

الحارس:

- سيدي، أخوك «علي بابا» على الباب، يستأذن لملاقاتِكم لأمر مهمّ.

قاسم (غاضبًا):

- ماذا يريد هذا البائس؟ ألا يملّ أبدًا من طلب المال والتسول رغم أنّي في كل مرة أصُدُّه؟ اذهبْ وأخبره أني مشغول، ولن أستطيع مقابلته، لِيَعُدْ بعد أسبوع أو اثنين، بل ثلاثة... ثلاثة أسابيع!

رجع الحارس خجلًا حزينًا إلى «علي بابا»..

الحارس (في خجل، وهو يرى علامات التوتر الشديد على «علي بابا»):

-سيدي «علي بابا»، أخوك قاسم يخبرك بأنَّه مشغول جدًّا الآن، وأمر بأنْ تعودَ له بعد ثلاثة أسابيع.

احمرَّ وجه «علي بابا» خجلًا، وقال في نفسه:

- مهما فعلَ فإنَّه أخي، ولن أتركه أبدًا فريسةً للّصوص وطمعهم، ولن أقبل بأن يَمَسَّ أخي سُوءٌ أبدًا.

علي بابا مجيبًا الحارسَ:

- أشكرك أيها الحارس الطيب، ولكن أرجوك، عُدْ إلى أخي «قاسم»، وأخبرْه أني واللهِ لم آتِ لطلب المساعدة، لكنْ أتيته في أمر خطير، هو مسألة حياة وموت، أتيته لأحذره من خطر محدق!

الحارس:

- حسنًا سيدي.

رجع الحارس إلى «قاسم» مسرعًا، وما إن رَآه قاسم مجددًا حتى احمرَّ وجهه وثار، ولم يُكمل الحارس قوله:

- سيدي قاسم، إنَّ أخاك «علي بابا» أتى لـ...

لم يكمل الحارس عبارته إلا وقاطعه قاسم ثائرًا، وقال بأعلى صوته:

- ماذا يريد هذا البائس الصُّعلوك؟! هل عليَّ أن أطرده وأسبّه وأضربه ليذهب عني... ؟

وأكمل في ثورة عارمة:

- وأنت أيها الحارس الغبي، ألم أخبرك أن تقول له: إني مشغول، وأن يذهب بلا عودة؟

الحارس:

- هو أتى ليحذرك -فحسْب- من خطر محدق!

قاسم:

- يا لَبجاحته! ألا يكفُّ عن اختلاق القصص ليتسوَّل مالي؟! اسمع أيُّها الحارس، أنت وهو مطرودان؛ هو لأنه أتى ليُعكِّرَ صفوي ويتسوَّل مالي، وأنت لإصرارك على إزعاجي به، وعدم سماع كلامي، والآن هيَّا اغرب عن وجهي أيُّها الأحمق قبل أن آمر الخدم بأن يلقوا بك خارجًا.

وأكمل بصوت مرتفع، سمِعه علي بابا من النافذة:

- وفِي طريقك أخبرْ «علي بابا» أني سآمر الحارس بضربه بالسياط إن لم ينصرف في غضون دقيقة واحدة.

خرج الحارس فزعًا، وما إن وصل إلى بوابة القصر حتى لم يجد «علي بابا»، فقد سمع صياحَ أخيه وإهاناتِه في حقّه، فمضى في هدوء وقد اغرورقت عيناه بدموع مليئة بالحسرة والأسى على حالته التي وصل إليها، وعلى جحود أخيه الذي أتى لينذره من بطش اللصوص لا لأن يتسوَّل مالَه،كل هذا لم يَثْنِ «علي بابا» عن منع الضر والشر عن أخيه!

متناسيًا حزنه، قصد «علي بابا» قائدَ العَسَسِ في بلدتهم، وما إن وصل إلى معسكره حتى وجد رجلًا مفتولَ العضلات ذا قامة وقيمة رهيبتيْنِ، تبدو عليه علامات الشجاعة والطيبة معًا، وما إن أخبرَ حرَّاسَ قائد العَسَسِ بأنه بحاجة لملاقاة سيدهم في أمر عاجل، حتى سمحَ له على الفور؛ فقد كان يسمع عن بساطة «علي بابا» وطِيبته كثيراً ، وترك قائد العَسَسِ أعماله

العاجلة ليتفرغ لسماع «علي بابا».

علي بابا وقد بدا عليه علامات الإعياء والتعب:

- السلام عليكم سيدي القائد «مهران».

مهران (قائد العَسَس):

- وعليكم السلام أيها الرجل الطيب، فِيمَ قدومك؟ أخبرني الحرس أنك تريدني لأمر مهم، لكنْ أولًا اشرب هذا التمر، فإني أراك متعبًا مجهدًا.

علي بابا:

- أشكرك يا سيدي، لا حاجة لي إلى أي شيء إلا إصغاءك، فقد أتيتك في أمرٍ جِدٍّ خطيرٍ.

مهران:

- تكلَّم يا «علي بابا»، كُلّي آذان مُصغية.

علي بابا بتلهف:

- بينما كنت اليوم أحتطب في أطراف الغابة، رأيت أربعين رجلًا مسلحين، ظننتهم في بادئ الأمر تجَّارًا، ولكني توجّستُ من أمرهم وتبِعتهم دون أن يلاحظوني، وما إن وصلوا إلى مغارة حتى فتحوا بابها الصخري بتعويذة سحرية، وما إن فُتحت حتى أفرغوا حمولة إبلهم وخيولهم التي كانت محملة بالذهب والفضة والأقمشة، وسمعتهم يتحدثون عن سرقة التاجر «سمعان».

«مهران» وقد بدا عليه الإنصات الشديد والاهتمام:

- نعم، لقد سُرِق أمسِ التاجرُ «سمعان» قبل الفجر... وبصوتٍ حادٍّ متجهِّم

أردفَ قائلًا:

- أكملْ أكمل يا «علي بابا».

علي بابا:

- نعم يا سيدي، إنهم هم عصابة اللصوص الأربعين الذين دبَّروا ونفَّذوا كل السرقات الأخيرة في بلدتنا والبلاد المجاورة.

وأكمل علي بابا:

- وقد وضعتُ علامة لتحديد طريق الوصول إلى المغارة بسهولة.

أكمل علي بابا وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه:

- المهم يا سيّدي أنّي سمعتهم الليلة يدبِّرون لسرقة قصر أخي «قاسم» ودكاكينه، وقد ذهبت على الفور لأنبّهه، ولكنه رفض مقابلتي وطردني وطرد الحارس المسكين من عمله؛ ظانًّا أني أتيت أطلب المساعدة والتسوُّل منه، ولكن ليس هذا مهمًّا، المهم أن تتخذوا -سيادتكم- الإجراءات اللازمة لمنع هذه السرقة، أرجوك.

مهران:

- «علي بابا»، يا لك من رجل طيب، سمعت عنك كثيرًا، ولكني لم أظن أبدًا أنك بهذا النبل وهذه الأخلاق الطيبة، أهمّتك حماية أخيك وهو الذي طردك منذ قليل وأساء معاملتك.

علي بابا مقاطعًا مهرانَ:

- سيدي، هذا أخي على كل حال، ربما التبس عليه الأمر، وأساء الفهمَ دُونَ قصد، المهم أني سمعتهم يخططون لسرقته بعد الفجر، وقد قَدِموا إلى

المدينة في جِرار كبيرة مع قائدهم الذي انتحل صفة تاجر عسل؛ ليسهِّل دخولهم المدينة دون أن يكشفهم أحد، وما إن يُقبِلِ الفجرُ حتى يخرجَ الأربعون من الجِرار لتنفيذ خطتهم الخبيثة. أرجوك يا سيدي تحرَّكوا بسرعة.

وقف قائد العسس «مهران» في تأهُّب وجِدَّة، وجمعَ الجنود بنداء واحد، وأمرَ مشرفهم بأن يختار له أقوى وأشجع مائة جندي، وتوجَّه بهم إلى السوق مصطحبًا «علي بابا»، وكان وقت العشاء، وما إن وصلوا إلى السوق حتى تعرَّف «علي بابا» إلى قائد اللصوص، وهمس في أذن «مهران» قائلًا: سيدي «مهران»، هذا هو رئيس اللصوص (دون أن يشير إليه).

وقف «مهران» في قلب السوق مناديًا في التجار:

- أنا «مهران» قائد العسس، لا تقلقوا أبدًا، نحن هنا لنقوم بإجراءات روتينية لحمايتكم.

وكان مهران قد أخبر مشرف الجنود بأمر الأربعين لصًّا، وأمره بأن ينشر جنده حول الجِرار الأربعين أولَ وصوله إلى السوق ويطّلع «علي بابا» على كبيرهم.

أغلق الجنود أفواه الجِرار على الفور بأقمشة سميكة، وأحكموا ربطها جميعًا، وبدا الارتباك على قائد اللصوص «شومان» الذي بدا عليه الارتباك والقلق الشديدان، وقد أدرك على الفور أن خطتهم قد انكشفت.

حاول الهرب سريعًا، ولكن «مهران» كان متوقعًا ذلك، فباغَتَهُ بضربة سيفٍ قوية بترت قدمه اليسرى في لمح البصر، وقد كان «مهران» حريصًا

عـلى ألَّا يُقتـل قائـد اللصوص حتـى يعرفَ منـه تفاصيل سرقاتهم، ويرشـدهم إلى أماكـن المسروقـات إن لم تقتـصر عـلى المغـارة التـي يعرفهـا «عـلي بابـا».

«مهران» بصوت حادٍّ يُزلزل السوق كلَّها:

- قِف مكانك أيها اللص قبل أن أقطعَ عنقَك مثلما قطعتُ قدمك.

شومان يصرخ في ألم شديد متلعثمًا:

- سيدي، آآآه، عن أأأيّ لص تت تت تتحدث؟

مهران:

- عنك أنت أيها الوغد السارق...

هنـا بـدأ الهـرج والمـرج في السـوق، وتجمَّـع الجميع واسـتيقظ مَـن كان نائمًا منهـم، اسـتيقظوا مـن هَـولِ الموقف؛ ليشـاهدوه، وقد بـدأتْ تُسـمَعُ أصواتُ حـركاتٍ واضحـةٌ مِـن داخل الجِرار مـن اللصوص الذين بدأوا يكـسرون الجِرار واحـدة تلـو الأخـرى مِـن ضِيـق النفَـس، وكان كلُّ مَـن يخرج منهـم يخرج في إعيـاء شـديد مستسـلمًا لمصيره المحتوم بـالأسْر في أيدي العَسَـسِ.

في يـأس وتهـوُّر حـاول قائـد اللصـوص مباغتـةَ «مهـران» بضربـة نافـذة في صـدره بعـد أن أخـذ سـيفًا مُلْقًى عـلى الأرض مـن لصوصه، ولكن «عـلي بابا» كان منتبهًـا، دفـع «مهـران» بـكل قوتـه عـلى الأرض بعيـدًا عـن مرمى سـيف «شـومان» قائـد اللصـوص، وقـد طال حرف السـيف كتـفَ «علي بابـا» بجُرح سـطحيّ، وفِي لحظـة واحـدة تحـرَّك أحـد الجنـود وقطع رأس «شـومان».

بلهفة صاح مهران قائد العَسَسِ:

- «علي بابا»، أأنت بخير أيُّها الطيّب؟ أشـكرك على شـجاعتك، فلولا شـجاعتك

لكنتُ في عِدَاد الموتى، بعد أن باغتني كبير اللصوص الخسيسُ حين كنت منشغلًا بمتابعة خروج اللصوص من الجِرار، لولا انتباهك وشجاعتك لكنتُ في عِداد الموتى أو في ألم من إصابة مميتة.

علي بابا وقد زاد عليه الإعياء:

- لا عليك سيدي، أنا بخير، مجرَّدُ جُرحٍ سطحيّ، المهم عِندي أن نعيدَ الحق إلى أهله.

مهران:

- ضعوا كل هؤلاء اللصوص في السجن الآن، وسأذهب -فجرًا- لأخبر الوالي بكل ما حدث.

وأكمل:

- الآن، أرسلوا إلى كل مَنْ سُرِق مالُهُ، وأْمُرُوهم بأن يَحضُروا فجرًا أمام قصر الوالي.

ولْيذهبْ أحدكم إلى بيت «علي بابا» ليُطَمئن زوجته وابنه عليه؛ لأنه سيستريح الليلةَ عندي لِأُكرم ضيافته، رَيثَما يَحِلُّ الفجرُ ونذهب معًا إلى قصر الوالي مع حُلول الصباح.

ذهب «علي بابا» إلى قصر قائد العَسَسِ «مهران»، وقد بلغ منه الجهد والإعياء مَبلغًا، في يوم طويل جدًّا وكأنه دهرٌ، أو كأنه محضُ حُلمٍ، بدأ بهموم الدَّيْن وضِيق الحال، ثم الذَّهاب لطلب الرزق والاحتطاب، وما كان من أمر مشاهدة اللصوص، ثم طرْدِه من بيت أخيه، وأخيرًا القبض على اللصوص، وإصابته في كتفه أثناء إنقاذه لكبير العَسَسِ، اغتسل «علي

بابـا» وتنـاولَ طعامـه بعـد أن طبَّـبَ جُرحَه طبيـبُ القصر، حاول النـومَ لكنه لم يسـتطع، وظـل يفكـر في كل مـا حـدث، والأهـم أنـه بـدأ يفكـر في حالـه، وكيـف أنـه -رغـمَ حبّ النـاس له- لم يسـاعد نفسـه وتجارته، وكيـف أنَّه كان متـواكلًا مستسـلمًا لضِيـق حالـه دون أن يبذلَ جهدًا حقيقيًّا لتحسـين أوضاعه البائسـة، وكيـف أنَّـه حـاول مِـن قبـلُ طلبَ مسـاعدة أخيـه باحثًا عن أسـهل الحلـول بأقـلّ جهـد، ومـا إن يَضِقِ الحـالُ به حتى يذهب ليحتطب ليكتسـب قليـلًا مـن المـال الـذي لا يكفـي لسـدِّ رمَقِهِ ورمـق زوجتـه وابنه الصبـيّ، فما كان منـه إلا أن يسـتدين مِـن كل مَـنْ يعرفهـم؛ لكـن بحُبّ الناس لـه وثِقتهم فيـه لم يأْلُـوا جهـدًا في مسـاعدته وإقراضـه. وتذكَّـر «علي بابا» كيـف تراكمت ديونـه، ولَـم يسـتطع الوفـاء بهـا، وكيـف أنَّ التجار بـدأوا يطلبـون حقوقهم، ورفضـوا إقراضـه قبـل سـداد ما مـضى. إنّ الأحـداث المتسـارعة في هـذا اليوم جعلتـه يسـتيقظ مـن غفوتـه، ويفكـر جديًّـا في إحـداث تغيـيرات حاسـمة في حياتـه لإصـلاح نفسـه، وتحسـين حالـه، معتمـدًا عـلى اللـه بقلـب متـوكلٍ لا متـواكلٍ، وفِي غمـرة تفكـيره قاطعَـهُ صـوت الحارس...

الحارس:

- سـيدي «عـلي بابـا»، لقد أمرني سـيدي «مهـران» بإيقاظك لتذهـب معه إلى قـصر الـوالي، وكان الفجر قـد أقبل.

أمـسِ، بعـدَ قتـل كبـير اللصـوص، أخـبرَ «مهـران» واليَ المدينة بمـا كان من أمر «عـلي بابـا» والأربعـين لصًّا، وأُعجب الوالي بشـجاعة «علي بابـا» وأمرَ الجميع بالحضـور إلى قصره بحلول الصباح.

تجهَّـز «عـلي بابا» و«مهران» مسـتعديْن لِلِقـاء الوالي، وما إن خرجـا حتى لَقِيا التجّـار المنهوبـةَ أموالُهـم، وقـد بـدت علامـات البِـشْر والأمـل عـلى وجوههم جميعًـا، يقينًـا في أن اللـه قـد أنصفهـم، وأن أموالهـم -التـي تكبَّـدوا العنـاء لجمعهـا وكسـبها بالحـلال- تُوشِـكُ أن تُـردَّ إليهم بعـد نهب عصابـة اللصوص إيّاها.

في تجمهُـرٍ حـول قـصر «مهـران» وصَخَبٍ شـديد مُفعم بالفرحة، نـادى التجار «مهـرانَ» مطالبـين إيّـاه بسُرعـة لقـاء الـوالي، وقـد أوشـك الصبـح أن يُـشرق سـناه أمـلًا وبِشْرًا .

نادى مهران بصوت يحمل الحزم والبُشرى:

- أيُّهـا التجـار، لا داعـيَ للعجلة أو التجمهر، لا تقلقوا، سـيعود الحق إلى أهله اليـوم،كل مـا أطلبـه أن توكِّلـوا تاجـرًا واحدًا عنكـم لملاقاة الـوالي، وتأكدوا من أنّ سـجلاتنا مـدوَّنٌ فيهـا جميـعُ تفاصيل مـا سُرق من كل تاجر منكم، سـأعود إليكـم بعـد قليـل ريثما أحضر أحـد اللصوص لملاقـاة الوالي.

دخـل «مهـران» السـجن مصطحبًا «عـلي بابا» لملاقـاة اللصـوص الأربعين، وما إن رآهـم ـــ وقـد بلـغ بهم اليـأس والإعياء مبلغًـا ـــ حتى صـاح فيهم بصوت حـازم قويّ.

مهران:

- الآن، أخـبروني أيُّهـا الأوغـاد، مَـنْ ينـوب عن كبيركم الـذي قُبِرَ أمـسِ، ومات في خِسَّـةٍ وغـدرٍ مثلـما عاش في خيانـة وسرقة؟

لم يُجب أيٌّ منهم مهرانَ، فأكمل قائلًا بصوتٍ أكثرَ حِدَّةً:

- ما لكم؟ أَأَصِمَّتْ آذانُكم وعَمِيَتْ أعينُكم؟

وبعد أن تأكد من أنهم لن يجيبوه، اختار أحدَهم ليذهب به إلى الوالي.

كان الصباح قد أشرق، فذهب الجميع إلى الوالي «مهران مصطحبًا علي بابا وكبير التجار ومشرف الجند وأحد اللصوص الأربعين»، وأوّلَ دُخوله على الوالي...

مهران:

-سلام الله عليكم سيدي الوالي.

الوالي:

- وعليك السلام حاميَ الحمى وقائدَنا الشجاع مهران.

مهران:

- سيدي، قد كان من أمر «علي بابا والأربعين لصًّا» ما كان، ما قصصته عليكم أمسِ، والآن نذهب إلى مخبأ اللصوص لإحضار كل ما نهبوه في السنين الماضية.

الوالي:

- «علي بابا» الطيِّب الشجاع الأمين، أنت مثال طيب للأخلاق الكريمة والنُّبل، خذ ما يكفيك من الجند والإبل والحمَّالين واذهبوا لإحضار ما نهبَهُ اللصوص، ولْتأتوني جميعًا.

مهران وعلي بابا في صوت واحد:

- أمْرُكَ مولانا الوالي.

بينما يتوجَّه «مهران» بصحبة «علي بابا» وأحد اللصوص صباحًا ليرشدهم إلى موقع المغارة التي يخبؤون فيها المسروقات، استيقظ «قاسم» -على عادته- مبكرًا ليتفقَّد شئون تجارته، وإذا بحرَّاس قصره يخبرونه بحديث كل أهل المدينة عن أمر «علي بابا والأربعين لصًّا»، وعن شجاعة «علي بابا» ونُبْله الذي يحكي الجميع عنه.

قاسم:

- ماذا هنالك أيها الحارس؟ ما كل هذا الصَّخَب في المدينة؟

الحارس:

- سيدي، إن أخاكم «علي بابا» قد أظهر شجاعة منقطعة النظير بإرشاده إلى عصابة «الأربعين لصًّا» التي كانت تخطط لسرقتكم الليلة الماضية...

قاسم «وقد بدا عليه علامات الاندهاش والإصغاء»:

- سرقتي؟؟ أيَّ عصابة؟ وما شأن «علي بابا» بذلك؟

قَصَّ الحارس كل ما سمعه بشأن خُطّة اللصوص لسرقة أخيه قاسم، وأمْر الجِرار الأربعين، وإنقاذ «علي بابا» لمهرانَ قائدِ العَسَسِ.

قاسم في نفسه:

- يا لَغَبائي وغلاظة قلبي! الآن قد عرفت سبب مجيء أخي «علي بابا»، وإصراره الشديد على مقابلتي أمسِ، وما كان مني إلَّا أن طردته مِن قبلِ أن أسمعه، سامحني يا الله، وأدعوك أن يسامحني أخي المسكين.

أدرك قاسم بشاعة تصرفه المحزن إزاءَ أخيه الطيب، ونِدِم ندمًا شديدًا متمنيًا أن يسامحه أخوه على غلاظته وجفائه الشديد في معاملته، وإهانته إيَّاه أمام الخدم والحرَّاس، وتوجَّه إلى بيت الوالي، حيث يجتمع التجار أمامه منتظرين عودة «مهران» و«علي بابا» بالمسروقات، وتوزيعها على أصحابها وإعادة الحق لأهله.

***

في طريقه إلى مغارة اللصوص متبعًا «علي بابا» -الذي وضع علامات بفأسه على الأشجار سابقًا لمعرفة الطريق- سأل «مهران» اللص الذي كان يرافقهم...

مهران:

- ماذا جنيتم من سرقاتكم وأكلكم مالَ الناس بالحرام غير الذل والخسة؟

اللص متلعثمًا:

- سيدي، لسنا لصوصًا، وإنما تبعنا «شومان» الرجل الذي قتلتموه عندما أمرنا أن نبقى في الجِرار نظيرَ عشرِ قطعٍ ذهبية لكلٍّ واحدٍ منَّا..

علي بابا (مقاطعًا اللص):

- يا كاذب، تقصد أنكم لستم لصوصًا، وأنكم لم تخططوا لسرقة «قاسم» أخي، فما كان قصد زعيمكم بوضعكم في الجِرار؟

اللص:

- سيدي لم نعرف قصده، ولكن كُنَّا في حاجة للمال، ولسنا لصوصًا ولا نعرف شيئًا عن المسروقات، وإذا وجدتم شيئًا في الغابة فنحن إذًا مذنبون..

(كان اللص يكذب ليُفلتَ من عقوبة السرقة، ظنًّا منه أن لا أحدَ سيعرف عن المسروقات شيئًا، ولا عن سرّ المغارة المسحورة التي تُغلق وتُفتح بكلمة سر تُحرّك صخرة مهولة).

علي بابا يردُّ بثبات:

- أممم، لستم لصوصًا إذًا؟ وليس هناك مسروقات؟ سوف ننظر في ذلك!

وبعد أكثر من ساعة من السير المتواصل بالأحصنة والإبل سأل «علي بابا» «مهران» أن يتوقف عند العلامة التي وضعها على الشجرة أمام المغارة، واصطحب اللص ووقف أمام باب المغارة.

علي بابا:

- والآن، أيُّها اللص الجبان، أما زلت مُصرًّا على عدم وجود مسروقات؟ هل تفتح المغارة أو أفتحها أنا؟

اللص (متلعثمًا):

- س س سيدي، لا علم لي بذلك، وهذه مجرد صخرة لا شيء خلفها.

علي بابا:

- حسنًا، وإذا فتحتها وأريتك المغارة التي خلفها وما بها من مسروقات؟

نظر اللص إلى الأرض خائفًا ولَم يُجبْ بكلمة واحدة..

وقف «علي بابا» أمام باب المغارة، وقال في حِدَّة وبصوت مرتفع:

- «افتح يا سمسم» فتحرَّكت الصخرة على الفور، أمام ذهول الجميع ودهشتهم الشديدة، بل إن بعضهم كاد يفرُّ هربًا من هول المنظر، أمَّا اللصُّ فتسمَّرَ مكانه كأنّ على رأسه الطيرَ محدِّقًا إلى الأرض.

بعد ذَهاب الذهول عن الرجال دخل «مهران» المغارة ليجد فيها ما فيها من أكيال لا تُحصى من الذهب والفضة واللؤلؤ والمَرجان والزمرّد والأقمشة الحريرية والحُليِّ التي تُكال بالمكاييل، وكلها من قُوت تجار المدينة وعرَقهم.

أمرَ «مهران» الجنود بإفراغ المغارة عن بكرة أبيها بأسرع وقت ممكن، وفِي غضون ساعتين كان الحرَّاسُ قد حملوا محتويات المغارة كاملة على الإبل المائة التي أحضروها لهذا الغرض، وأخذَ يجهشُ اللص بالبكاء نادمًا على ما كان منه ومن عصابة الأربعين حراميًّا.

اللص:

- الآن، ندمت على ما كان مني بعد أن ظهرَ الحقُ، نعم، كُنَّا نسرق بلا توقف وبلا ضمير، ليلًا كان أو نهارًا، وقد عَميت أعْيُنُنَا، وأُصِمَّتْ آذانُنَا، والآن سوف نواجه مصيرَنا المحتوم.

مهران:

- فات أوان الندم أيها اللص السارق، وستنالون عقابكم بالعدل، وأنت أيها الرجل الطيب «علي بابا» هيا نعود إلى الوالي معًا لنرى حُكمه في هذه المسروقات، أتمنى أن يأمر بتوزيعها عاجلًا على مستحقّيها.

مضى «مهران» و«علي بابا» والجند عائدين إلى قصر الوالي ومحمَّلين ببضاعة عظيمة لا حصر لها، وعند وصولهم إلى عرش الوالي...

الحارس:

- سيدي الوالي، «مهران» و«علي بابا» عادا من المغارة بالمسروقات التي

كانت بحوزة عصابة الأربعين حراميًّا، ويستأذنونك للدخول.

الوالي:

- مَرْحى مَرْحى...بل أنا مَنْ سيأتي لملاقاتهم، بنفْسي.

وخرج إلى فِناء القصر وشاهد منظرًا مَهيبًا، مائة جمل محملة ببضاعة لا حصر لها، يحرسها الجنود ومِن حولهم التجار، منتظرين عودة أموالهم المنهوبة في تلهُّف..

الوالي (وهو يخطب في الجمع):

- مرحبًا بعودتكم منتصرين غانمين، وشكرًا لك «علي بابا»، أنت بطل ...

وأكمل:

- أيُّها الناس، هذا يوم عيد، لَيْس لأنَّ الحقوقَ ستُرَدُّ إلى أصحابها فحسْب، بل لأنَّنا -أيضًا- تخلصنا من شرِّ عصابة الأربعين حراميًّا التي عاثت في الأرض خرابًا وفسادًا على مدى عشرين عامًا دون أن نتمكن منهم. أيُّها الناس، أيُّها الجنود الأبطال، وقائدهم «مهران»، إنَّ الفضلَ بعد الله يعود إلى هذا الرجل الطيب... أَقْبِلْ يا «علي بابا».

نادى الوالي «علي بابا» ليكون بجانبه وهو يخطب في الجمع... وأكمل:

- إنَّ هذا الرجل الطيب الأمين «علي بابا» ما إن عَلِمَ شأن عصابة الأربعين حراميًّا حتى بلَّغ كبير العَسَسِ على الفور، ولو أنَّ أحدًا في مكانه وفِي ظروفه المادية الصعبة واحتياجه لسداد ديونه، لَنهبَ كل ما في المغارة تدريجيًّا بعد أن عرفَ سرَّها، ولكنه أبى أن يَقبلَ على نفسه وعلى أهل بيته الحرام، وآثرَ أن يساعدنا في عودة الأمن إلى مدينتنا أولًا، ثم عودة

الحق إلى أصحابه ثانيًا، لم أرَ أحدًا في طيبته وأمانته، بل في شجاعته عندما أنقذ بطلُنا قائدَ العَسَسِ مهرانَ قبل أن يغدر به زعيم اللصوص. أيها الناس، أمَّا هذه المسروقات فستعود إلى مستحقيها طبقًا لسجلات دواوين المسروقات في ديوان القضاء، وأمَّا «علي بابا» فلا أعرف ما أكافئه به لأمانته وشجاعته، وأستشيركم في ذلك...

كبير التجَّار (طالبًا الإذن بالحديث):

- إذا أذنتم لي مولاي الوالي...

الوالي:

- تفضَّل يا كبير التُّجَّار.

كبير التجار:

- إن «علي بابا» الأمين كان سببًا من الله في عودة الحق لأصحابه، وإنِّي -بالنيابة عن كل التجار- أخبركم يا مولاي أننا اتفقنا على أن نجعل لـ«علي بابا» نسبة العُشْر من كل المسروقات، وإن كانت قليلة مقابل جهده وأمانته.

الوالي (مُرْبتًا على كتف علي بابا):

- ماذا يا بطل؟ ما قولك فيما عرض كبير التجار؟

علي بابا (في خجل وأدب وتواضع جمٍّ):

- مولاي الوالي، أولًا- اسمحوا لي أن أشكركم على ثنائكم الحسن، ولكنْ صدّقني يا سيدي، ما فعلته هو الواجب -فحسب- الذي يُمليه عليَّ خوفي من ربي، ثم ضميري، وصدقني يا مولاي لو أنَّ أيَّ أحد من الحضور الأفاضل

كان في موقفي لَفعلَ حتمًا ما قمتُ به، أمَّا اقتراح الوجيه كبير التجار، فاعذرْني يا مولاي، فإني لا أرى أبدًا أنَّ هذا مِنْ حقي، ولو قطعةً ذهبية واحدة مما اقترحه كبير التجار؛ لأن ما قمت به مجرَّد واجب وأمانة كان يجب عليَّ أن أؤديها كاملة دون نقصان، وأداء الواجب لا بُدَّ أن يكون جزءًا من التزاماتنا وواجباتنا التي لا يجب أن نؤجَر عليها إلا من الله، طلبت الأجر من الله وحدَه، ولكُم وللوجيه كبير التجار كلُّ الشكر والمودة، والمال هو من حق أصحابه فحسْب.

أجاب الوالي ناظرًا إلى «علي بابا» بكل إعجاب واحترام:

- أنت مَعدِنٌ نادر من البشر الأمناء الطيبين يا «علي بابا».

وفِي وسط هذا الحوار إذا بصوتٍ يرتفع مِن وسط الحضور، يقول:

- مولاي الوالي، هل تأذن لي بالحديث؟

الوالي:

- مَن أنت أيها الرجل؟

أجاب:

- سيدي الوالي، أنا قاسم أخو «علي بابا»...

وما إن ذكرَ اسمَهُ حتى امتلأ المكان بالكثير من الهمهمة في ضيق!

الوالي:

- سُكوتًا من فضلكم، سكوتًا من فضلكم، تكلَّم يا قاسم، ما بك؟

قاسم:

- سيدي الوالي، طلبت الإذن بالحديث، وهنا تحديدًا أمام هذا الجمع الكريم؛ لأعتذر إلى أخي «علي بابا».

(وأكمل وقد اغرورقت عيناه بالدموع وتلعثم صوته):

- إنَّ أخي «علي بابا» قد قصدني كثيرًا في السابق لأساعده ليجد عملًا، أو أُقرضَهُ بعضَ المال ليبدأ به تجارةً حلالًا، أو يعملَ في بعض تجارتي، ولكني رفضت بمنتهى الجحود كلَّ هذه الاقتراحات، وأبيْت أن أساعده ظنًّا مني أنَّه طامع في مالي، وأن مساعدته ستكون بابًا لن يُغلَق، وأمسِ كانت الفاجعة عندما أتاني ينبهني بشأن اللصوص...

علي بابا (مقاطعًا):

- حسْبُكَ يا أخي، لا تثريب عليك! لا تكملْ رجاءً، قد وصلني اعتذارك، ولا أريدك أن تكون في موقف ضعفٍ أمامي ولا أمام أحد، إذا أردت مني قبول اعتذارك فلي شرط واحد، هو ألَّا تُكمل، وألَّا تضع نفسك في هذا الموقف.

وهنا احتضن «قاسم» أخاه «علي بابا» في مشهد مؤثر، وأجهش بالبكاء.

الوالي (وقد تأثَّر بما رأى):

- الآن يا «علي بابا» سأحترم رغبتك في رفضك مكافأة التجار، وعفوك عن أخيك «قاسم» وعدم عِقابنا إياه...

واستدركَ قائلًا:

- ولكنْ طلبٌ واحد، وليس لك الحق في رفضه (وأكمل مبتسمًا)؛ لأنه سيكون فرمانًا من الوالي، ستكون في منصب (مستشاري الخاص)، ورئيس

لشـئون بيـت المـال والـزروع وتحصيـل الضرائـب، وأَمَرْنَـا لـك بقـصر، ومائـة ألـف قطعـةٍ ذهبيـة كراتبٍ شـهريّ، مِثلك يا «عـلي بابا» سـيكون إضافة لهذه المدينـة، ولمسـاعدتي في إدارة شـئون الحكـم ومراقبـة وارداتهـا ومصروفاتهـا.

ردَّ علي بابا (مبتسمًا في تواضع):

- قد قبلتُ يا مولاي.

وردَّد الجميع في صوت واحد:

- «فلْيحيَ علي بابا، الأمين الشجاع الطيب... فلْيحيَ علي بابا».

***

تعقيب على قصة «علي بابا والأربعون حراميًّا» المشوَّهة التي نقصُّها على أبنائنا:

علي بابا ... الحرامي!

مـن أمثلـة القصـص المشـوَّهة التـي نعرفهـا جميعًـا، ونتناقلهـا -أقـول مـع الأسـف- عـبر الأجيـال للتسـليةِ والتَّنـدُّرِ، ونرويهـا لأبنائنـا بالغـرض نفسِـه، وكأنهـا مـن أساسـيات الثقافـة والمعرفـة التـي يجـب أن يحفظوهـا ويتنـدروا بهـا، القصـة المسـمَّاة «عـلي بابـا والأربعـون حراميًّـا» مثـالٌ حـيٌّ مـن أمثلـة السَّـفَهِ والانحطـاط الخلقـي.

وعلَّـة ذلـك ليسـت هـي خياليـة الوصـف أبـدًا؛ لأن الخيـال يجـذب الطفـل ويسـاعده عـلى فهـم العـالم مِـن حولـه بطـرق سلسـة ممتعـة جاذبـة، ولكـن الإشـكالية في هـذه القصـة تكْمُـن في هـدم أسـس الفضيلة، وما هـي إلا مثال لِقصـص لا حـصر لهـا، منهـا مـا يحـضُّ عـلى الكـذب، ومنها مـا يدعـو للتواكل وعـدم بـذل الجهـد والأخـذ بأسـباب النجـاح، ومنهـا -مِثـل هـذه القصـة- ما يسـوِّغ السرقـة ويصفهـا كأنهـا إحـدى صـور القناعـة والحـظِّ والمكافـأة لرجل طيـب صـبرَ طويـلًا، ومـا كان منَّـا إلَّا أن نتناقلهـا غـيرَ عابئين أو واعـين مَغزاها ومقصدهـا الخطير!

بدايـة هـذه القصـة تصـف «عـلي بابـا» الحطَّـاب الفقير الـذي لا يَعيبـه فقرُه أبـدًا، لكـن مـا يَعيبـه هـو الاتكاليـة وعـدم الأخـذ بالأسـباب، وعـدم السَّـعي الحثيـث، وانتظـار معجـزة تنقلـه مِن مَجاهل الفقـر إلى أعلى درجـات الغِنَى.

وفي المقابل، تصف القصة أخاه «قاسم» التاجر الناجح الثريّ الذي أخذ بكلّ أسباب النجاح حتى صار ــ بجهده ــ من أغنى الأغنياء مالًا ومكانةً، تصفه بالجشع والطَّمع واضطهاد أخيه الطيب الكسول «علي بابا»، ويستمر سردُ القصة بعد تراكم الديون على كاهل «علي بابا» بعد أن افتقر إلى كل وسائل الأخذ بالأسباب للكسب الشريف في انتظار معجزةٍ تحققُ له النَّجاةَ والغِنَى دُون جهد، وتحدُث المعجزةُ بعد أن يرى -صدفةً- عصابة مكونة من أربعين لصًّا تدخل المغارة التي يحتفظون فيها بمسروقاتهم، وليُضفِيَ الراوي نوعًا من التشويق يضيف فكرة الباب الذي يُفتح بكلمة سرٍّ يعرفُهَا اللصوص، يستخدمها «علي بابا» للدخول في ما بعدُ، وعند دخول «علي بابا» مغارة اللصوص ــ وهذا هو أخطر وأحطّ جزء في القصة كلها ــ ينظر «علي بابا» إلى الياقوت والذهب بعُجْبٍ وانبهارٍ وفرحةٍ شديدة، ويأخذ منه قدرَ ما يستطيع مُردِّدًا: «أحمدك يا ربّ»، وكأنَّ هذا رزقُه المُكْتسَب، وليس مالًا مسروقًا لا حق له فيه! ولِتسويغ موقف «علي بابا» وتأكيد كَونه الشخصَ الصالح الطيب جهلًا، يضيف الراوي أن «علي بابا» لم يطمع، وإنما أخذ (نهبَ) ما يكفيه من الذهب والياقوت والمرجان، واكتفى، ليأتي بعدَه أخوه «قاسم» الذي لا يكتفي، فينكشف أمره ويقتله اللصوص.

وأصبح «علي بابا بعد الضنى لابس حرير في حرير» كما ذكر الراوي نصًّا، وغفل عن أهمّ سؤال: «مِن أين لك هذا يا علي بابا؟ بأيِّ جهدٍ ملكت هذه الأموال؟ وبأيِّ وسيلةٍ؟ أهِي حقًّا حلالٌ؟» الحقيقة أنَّه حراميٌّ سرق حراميًّا، وأصبح -بمنتهى اليقين ودُون شك- «علي بابا الحرامي»، هو لا يقلُّ ذنبًا ولا خِسَّةً عن الأربعين حراميًّا المذكورين في القصة، أخذَ المال المسروق

وعـاش بـه حيـاة رغيـدة، غير عابـئ بمصدره مـا دام قـد حقَّق لـه الغاية التي يتمناها دون جهدٍ أو سـعي.

أهـذهِ هـي القِيَـم والسـلوكيات التـي نبثُّهـا في عقـول أبنائنـا؟ حتـى إن كان الهـدف منهـا هـو مجـرد التسـلية؛ فهي مجـرد قصـة خيالية عتيقـة، لكن هل نريـد بهـا أن نـربي أبناءنـا عـلى السرقـة، وأنهـا نـوع مـن الحـظ والنجـاح في الوصـول للهـدف؟ هـل يعـي الطفـل أن هـذه القصـة هـي مجـرد مَزحـة أو تسـلية؟ إنـه تشـويه لـكل فضيلـةٍ ومبـدأٍ قويـم! وكـم مِـن قصـص مشـابهة تهـدم القيـم الأصيلـة، قصـص لا نعـي مغزاها الحقيقـي، ونردِّدُها بـلا فهم أو إدراك لمردودهـا السـلبي عـلى الأجيـال مِـن بعدنـا.

لقـد تعمـدتُ سردَ أحـداث القصـة بالتفصيـل رغـمَ أن الجميـع يعرفهـا، بـل يحفظهـا عـن ظهـر قلـب، ولكـنّ تنـاوُلي لهـا كان مـن الجانبـيْن النفـسي والسـلوكي؛ لِـما لهـا -ولِمثيلاتهـا من القصص المشـوَّهة- من أثر بالـغ الخطورة في سـلوكيات أبنائنـا، بغـير قصـد منَّـا، ولكـنّ حُسـن المقصـد لا يبرِّر أبدًا سُـوء الناتـج الملمـوس؛ لأن سـلوك أبنائنـا وتصرفاتهم ما هي إلا انعـكاس حرفيّ لكل مـا نُمليـه عليهـم أو نربيهـم عليه.

(٢)
الصيّاد «المكافح» وحُوريّة البحر

في قديم الزمان، فِي بلاد بعيدة، يعيش صياد طيب مكافح اسمه «نيروز»، يَكدُّ على لقمة عيشه لِيَسُدَّ حاجة زوجته «سعيدة» وابنته «فيروزة»، لكن احتياجات البيت كثيرة ودخْله من الصيد غير كافٍ، وكان العيد قد اقترب، وأراد «نيروز» أن يشتريَ لزوجته وابنته ملابس جديدة بدلًا من الملابس البالية التي أكل الزمانُ عليها وشَرِبَ، وصارت رثَّة مخجلة.

قرَّر «نيروز» أن يعمل بشكل مستمر دَؤوب لجمع أكبر قدرٍ من المال ليسدَّ رَمَقَ زوجته وابنته، ويشتري لهما ملابس جديدة، وقرَّر أن يخرج للصيد في وقت متأخر حتى لا يُضيِّع وقتًا دون أن يأخذ بأسباب جلب الرزق.

سعيدة:

- إلى أين أنت ذاهب في هذا الوقت المتأخر زوجي الحبيب؟

نيروز:

- سأذهب لطلب الرزق يا زوجتي الغالية، لعلي أستطيع أن أشتريَ لكما هدية وملابس جديدة في هذا العيد.

سعيدة:

- لا عليك يا نيروز، اسعَ، والرزق بيد الله وحدَه، ولا ترهق نفسك وتحمّلها فوق طاقتها.

نيروز:

- نعم نحن نسعى، والتوفيق والرزق بيد الله وحده، أستودعكِ اللهَ زوجتي الحبيبة.

سعيدة:

- في أمان الله وحفظه.

وصل «نيروز» إلى شاطيء البحر حيث يضع قاربه الصغير وشبكته البسيطة، تحرَّك بعيدًا عن البَرّ بمسافة معقولة في مكان اعتاد الصيد فيه، وسمَّى الله وألقى شباكه مرةً تلوَ الأخرى، واستمرَّ ذلك نحوَ أربع ساعات متواصلة، حتى اقترب منتصف الليل، ولم يصطد سمكة واحدة! وبعد جهد مستمر بلغ منه اليأس مبلغًا كبيرًا، وأحسَّ أنه لن يُرْزقَ اليوم بشيء من صيد البحر، وعزم أمرَه على أن يطرحَ الشبكة، وأن يكون هذا آخرَ طرح لهذا اليوم قبل أن يعود إلى بيته.

نيروز:

- يا رب، لقد بلغ مني التعبُ مبلغًا، وأسألك الرزق الحلال لأهلي، حتى أرجعَ إلى زوجتي وابنتي بما يسد رمقهم، أنت الرَّازق يا رب، وعلينا السعي.

بسم الله....

وألقى «نيروز» الشبكة وهو مجهَد بائس، وبعد بُرْهة قام بسحبها، وفجأة أحسَّ بشيء ثقيل فيها، وأخذ يجذبها بكل قوته، يُمنِّي نفسه بصيد ثمين ليبيعه ويقتات بثمنه، واستمر في السحب مدةً طويلة، والشبكة تتحرك

بصعوبة لما فيها من ثِقَل. وفجأة بعد أن اقتربت الشبكة من قاربه رأى شيئًا عجيبًا! كان في الشبكة فتاة، آدميّة ليست بسمكة، تَصبَّبَ عرقًا، وارتجف خوفًا، وألقى الشبكة مِن فوره، ثم هدَّأ من رَوْعِ نفْسه...

وقال في نفسه يائسًا:

- لعلَّها جثة فتاة مسكينة غرقت، وجرفَها الموجُ إلى هنا، وأهلها يبحثون عنها أو عن أي أثر لها، سأُخْرِجُها وأبحث عن أهلها أسلِّمهم الجثة، فهذه أمانة، ولعل الله قد اختارني لأدائها، ولكن لا أعتقد أن زوجتي ستفرح بعودتي بجثّة وهي تنتظر -على الأقل- بعضًا من السمك. على كل حال سأُخْرِجُ الجثةَ وأذهب بها إلى رئيس الشرطة للبحث عن أهلها.

وعاد «نيروز» إلى سحب الشبكة بكلِّ قوته، وهو يكرِّر «اللهم هوِّن يا رزَّاق»، وما إنْ خرج رأس الفتاة وهي في الشبكة، واقتربَ من حافَّة المركب، حتى وجده يتحرك، ولم يكن ضوء القمر مكتملًا، وهو في منتصف الليل تقريبًا والظلام من حوله، لم يلحظ في البداية تحرُّك الفتاة وظنَّه ردَّ فعلٍ طبيعيا من الجثة وهو يسحبها بالشبكة، ولكن كلما اقتربت الفتاة من المركب زادت حركتها اضطرابًا، بل بدأت تفتح عينيها وتنظر إليه، تسمَّر «نيروز» في مكانه وهو ينظر إليها في ذهول شديد، وجسمه يرتعش، وظن أنَّها عِفريتٌ من الجن، أو أن الجثة تحوَّلت إلى عفريت، وهو يكرِّر «بسم الله الرحمن الرحيم، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم»، ولم يتمالك قُواه، وألقى الشبكة مرة أخرى في الماء، وعزم على العودة دُونها من فرط خوفه، ولكن ما إن ألقى الشبكة حتى سمع صوتًا يناديه في هدوء...

الصوت:

- السلام عليكم أيها الصياد الطيب «نيروز»، لا تفزع ولا تخف، لك الأمان.

نيروز (متلعثمًا، وقد زاد فزعه من هول الموقف):

- وع ع عليكم السلام، م م م من يتكلم تحت المركب؟ م م من هناك؟

خرجت الفتاة التي كان يسحبها في شِباكه من الماء، وهي تنظر إليه بعينين زرقاوين لامعتين شديدتَي اللمعان، وهو يحدِّق فيها مشدوهًا مرتعبًا دون أن يحرِّكَ ساكنًا أو ينطق بكلمةٍ.

اقتربت الفتاة من المركب:

- لا تخف يا إنسيّ، لا تخف، لك الأمان، أنا «ريحانة» من حوريات البحر، وابنة ملك البحار العظمى، أنا أعيش -كما ترى- في البحر، ويمكنني التنفس داخلَ البحر وخارجَه، ولكن لا أستطيع العيش على اليابسة رغم قدرتي على التنفس؛ لأن لا قدمين لي مثلكم، وجلدي لا يحتمل الهواء والشمس مدةً طويلة، وإلا فسيذبل وينشف، ثم يَبلى في غضون ساعات، ونحن نقترب من سطح الماء كنوع من النزهة والتغيير كلما اقترب منتصف الليل. وبينما كنت أتجوَّل بقرب سطح البحر سمعت أنينك ودعاءك المُلحّ بالرزق، وما إن اقتربت من قاربك أكثر دون أن تشعر بي حتى طالتني شِباكك وصرت أسيرة كما ترى.

كان «نيروز» يسمع كل هذا في خوف وفي ذهول، وقدماه متسمرتان في الأرض كأنهما قطعتان من خشب مثبتتين على سطحِ قاربه، وعيناه مُحدِّقتان في عينيها اللامعتين في الظلام، لا طرفةَ عين.

كرَّرت الحورية:

- يا إنسي، لا تخف، قد وعدتك بالأمان وأنا لا أُخلف الوعد.

نيروز مرتعشًا:

- ل ل ل لا تؤذيني، رجاءً، ولن أوذيكِ، عندي زوجة وبنت هما في حاجة لي.

الحورية:

- لن أؤذيك! لا تقلق أيها الصياد الطيب، فلعلّي سببُ سعدِكَ لا أذاكَ.

نيروز وقد هدأ قليلًا:

- وماذا عليَّ فعلُهُ أيتها الحورية لتتركيني أرحل إلى سبيلي؟

الحورية:

- ليس إلا أن تحرِّرني من شبكتك، ولك الأمان، إنها تؤلمني كثيراً.

بدأ «نيروز» في جذب الحورية من يدها وهو يرتعش، ليسحبها على قاربه ويحرِّرها من الشبكة، كانت يدها ناعمة منزلقة تمامًا كجسم سمكة، وما إن جذبها وهو يرتعش ويكرِّر «بسم الله الرحمن الرحيم»، حتى خرج أكثر من نصف جسدها، واستمرَّ في الجذب حتى شاهد ما زاده فزعًا: الحورية ليس لها قدمان، وإنما ذيلٌ كذيلِ سمكة كبيرة! لاحظت الحورية «ريحانة» فزعَ «نيروز» وأخذت تُهدِّئ من رَوْعِهِ..

الحورية ريحانة:

- لا تخف أيها الصياد الطيب، هكذا نحن حوريات البحر، ليس لنا قدمان؛ لأننا -ببساطة- نَعومُ مثل السمك، ولا نمشي على الأرض، ونعرف جُلَّ لغات

أهـل الأرض، ولكـن التواصـل معكـم محـرَّم علينـا، ولـولا وجودي في شـبكتك لكنـت مضيـتُ إلى سـبيلي دون أن يحـدثَ بيننا أيُّ تواصـلٍ أو حوارٍ.

كان صـوت الحوريـة رقيقًـا ناعـمًا مطَمْئنًـا، ولكنـه لم يُذْهِـبِ الخـوف عـن «نـيروز»؛ الـذي مـا زال يرتعـش مـن هول ما يـراه في هذا الليل المظلم وسـطَ البحـر، وليـس مِـن حولـه بـشرٌ، وقـرَّر أن يُنهـيَ هـذا الأمـر بأقـصى سرعـة؛ لينتهـي هـذا الرعـب وهـذا الفـزع، ويعـود إلى زوجتـه سالمًـا، نعـمْ، دُون سـمك، ولكـن عـلى أقـل تقدير: يعـود بسـلامة، والـرزَّاق -عز وجـل- موجود، لعلـه يُـرْزقُ في يـوم آخـر.

بيـدٍ مرتعشـة بشـدة بدأ «نـيروز» يحرِّر الجِنِّيَّة من الشـبكة بسرعـة، وكان قد عـزم عـلى ترْكهـا وتـرْك الشـبكة من فزعـه لـولا إصرارُهـا وألمُهـا وطمْأنتُها له، وبسرعـة شـديدة حـرَّر «نـيروز» الحوريـة مـن الشـبكة وسـاعدها في الرجوع إلى الماء...

وكان يردِّد بصوت مرتعش، وجسد مرتعش:

- اذهبـي، عليـكِ الأمـان! لا تؤذينـي لا أوذيكِ....اذهبـي عليـكِ الأمـان، لا تؤذينـي لا أوذيكِ...اذهبـي عليـكِ الأمـان لا تؤذينـي لا أوذيـكِ.

الحورية قد وصلت إلى الماء، وتنفَّست الصعداء:

- هَدِّئ من رَوْعِك أيها الصياد الطيب...

نيروز:

- س س س سأعود إلي بيتي الآن، السلام والأمان لكِ.

ومـا إنْ هـبَّ «نـيروز» مسرعًـا للعـودة إلى بيتـه حتـى سـمعَ الحوريـة تناديه

برجاءٍ...

الحورية:

- انتظر أيها الصياد الطيب، لن أتركك تعود إلى بيتك خاليَ الوِفَاض، فقد أحسنت إليَّ ولم تؤذِني أو تأسِرْني لِتبيعني، وقد كان بوُسْعك ذلك؛ لذلك لن أتركك تعود خاليَ الوِفَاض.

هدأ نيروز قليلًا:

- و و وماذا ستعطينني أيتها الحورية؟

الحورية:

- أعطني شبكتك، وانتظرني قليلًا.

أخذت الحورية الشبكة وغاصت في الماء، وكان «نيروز» ينتظرها بمزيج من الخوف والأمل، وكاد يتركها ويرحل من فرط خوفه، ولكن بعد وقت قليل عادت الحورية وهي تمسك طرف الشبكة بصعوبة..

الحورية:

- أمسك هذه الشبكة أيها الصياد الطيب؛ فلا أقوى على إخراجها من الماء.

أخذ «نيروز» طرف الشبكة، وأخذ يجذبها بقوة وقد كانت ثقيلة، وما إن أخرجها حتى وجدها مليئة بأسماك كبيرة وأصداف، وبفطرته وتلقائيته كصيادٍ ينتظر الرزق على أحرَّ مِن جَمْرٍ، نسي فزعه بعدما شاهد كل هذا السمك الكبير الوفير، وانشرح صدره وذهب خوفه تمامًا!

نيروز:

- يا إلهي، اللهم لك الحمد، اللهم لك الحمد، هذا رزق وفير جدًّا لم أحصل

عليه مِن قبلُ في حياتي، وسيؤمِّنَ لي مبلغًا كبيرًا من المال لإسعاد زوجتي وابنتي، وشراء حاجاتهم وطعامهم وملابسهم، شكرًا أيتها الحورية الطيبة، لقد أسعدتِني فوق ما تتخيلين، هذا كرم كبير منك.

الحورية:

- لا عليك أيها الصياد الطيب، ما اسمك؟

نيروز:

- اسمي «نيروز»، وأنتِ يا سيدتي؟

الحورية مبتسمة:

- اسمي «ريحانة» وقد ذكرته لك في بداية حديثي معك، ولكنْ أعرف أنك -من فرط خوفك وقلقك- نَسِيتَ حواري الأول.

نيروز:

- نعمْ سيدتي الكريمة «ريحانة»، قد نسيت أغلب كلامك من فرط خوفي، عذرًا.

ريحانة:

- لا عليك أيها الصياد الطيب «نيروز»، عُد إلى بيتك وأَسعدْ أهلك. إن التواصل مع بني البشر نحن ممنوعون منه، إلا أن الأقدار هي ما حملني على التواصل أنا وأنت بعد أن وقعتُ في شِرَاك شباكك، ولن أمنعَ رزقًا ساقه الله إليك، لهذا سأستمر بمساعدتك إلى ما شاء الله. اذهب وبِعْ هذا السمك وابتَعْ لأهلك حاجاتِهم، وكلما احتجتَ شيئًا عُدْ إلى هذا المكان نفسه، عند منتصف الليل، في غير الليالي التي يكتمل فيها القمر؛

فإنّ الضوء يؤذينا ولا يَسَعُنا الخروجُ إلى سطح الماء عند اكتمال القمر، وستعرف لاحقًا دوري في حياتك عندما تَعُود مجددًا إن أردتَ.

نيروز متهللًا:

- أشكرك مِن عَميق قلبي.

ومضى نيروز فَرِحًا مسرعًا إلى شاطئ البحر يحمل هذا الرزق الوفير الذي لم يحصل عليه من قبل، وما إن وصلَ إلى البر حتى حملَ بصعوبة شديدة السمك الوفير الذي رُزِقَ به، وكان الفجر قد اقترب، وزوجته تنتظره في ترقُّب وقلق شديديْن؛ فإنه لم يتأخر خارج البيت لهذه الدرجة قَطُّ، وعند وصوله إلى بيته احتضنته زوجته وهي تبكي من فرط قلقها عليه، وفرحتها بعودته سالمًا.

«نيروز» وهو ينهج من فرط التعب وثِقَلِ السمك الذي كان يحمله:

- لا تَقلقي زوجتي الحبيبة؛ فقد كان رزق اليوم وفيراً كما تَرَيْنَ.

سعيدة -وما لاحظتْ حجم الرزق الذي أتى به زوجها من فرط قلقها عليه-:

- الله أكبر، ما شاء الله، ما كل هذا الخير؟

نيروز:

- في الصباح -إن شاء الله- أبيع هذا السمك بمبلغ وفير، وأشتري حاجة البيت وبعض الهدايا والملابس والطعام الطيب، والآن خذي هذه السمكة وأرجعيها لنا طعامًا، فقد بلغَ الجوع مني مبلغًا كبيراً، وأظنك أنتِ كذلك.

أخذت «سعيدة» سمكة كبيرة طيبة لتُعِدَّها طعامًا لزوجها، وقد نسي

«نـيروز» -مِـن فـرط فرحـه- أمر الحورية، مـا تذكَّرها إلا بعدمـا مضت زوجته لتُعـدّ لـه العشـاء، وأخذَ يفكـرُ، وقال لنفسـه:

- إذا أخـبرتُ زوجتـي بأمر الحورية ستشـعر بالخوف عليَّ، ولـن ترتاح أبدًا إذا ذهبـتُ إلى الصيـد مجـددًا، وسـتكون في قلـق وذعـر شـديدين، بـل لن ترضى بـأن أعـود إلى هنـاك مجـددًا، ومَهْـما طمأنتُهـا وشرحـتُ لها فـلا أظنهـا تقتنعُ بـأني سـأكون في أمـان؛ فالأمـر مخيـف جـدًّا مرعـب؛ لذلـك يجـب عـليَّ عـدم إخبارهـا بشـأن الحوريـة، ولْيكـن الأمـر بينـي وبين الحورية فحسْـب!

بعـد سـاعة عادت الزوجة بالسـمكة الكبيرة وقد شَـوَتْها بصـورة طيبة، وكانت رائحتهـا تفـوح بشـكل طيـب، أيقظـت ابنتهـا لتشـاركهما الطعـام، وكان ضوء الصبـح قـد بـدأ يُـشرقُ في يـوم جديد حافـل بكثير مـن الأمل للصيـاد المكافح وزوجتـه الصبـور، اجتمعـت الأسرة بفـرح على السـمكة الشـهيَّة وتناولوها في سعادة بالغة.

وبعد الطعام...

سعيدة:

- زوجي الحبيب، لِتَنَلْ قسطًا من النوم بعد هذه الليلة الطويلة الـمُجهدة.

نيروز:

- لا يـا حبيبتـي، لا وقـتَ للنـوم، والـرزق يُحِـبُّ البُكور،كـما أني أريـد أن أبيعَ السـمك طازجًـا، وبعـد أن أبيعـه وأطْمئن أعـود للراحة.

ثم استطرد قائلًا:

- هيَّـا يـا زوجتـي الغاليـة لِنرتّـب السـمك ونضعـه في سِـلال الخيـزران، أَلَدَيْنا

ما يكفي من السلال؟

سعيدة:

- نعمْ يا نيروز، لقد صنعت منها عشرًا الأسبوع الماضي، ولدينا ثلاثون مِن قبلُ، أغلبها في حالة جيدة.

نيروز:

- إذًا، ابدئي في فرز السمك حَسَبَ نوعه، ولا تضعي أكثر من نوع في سلَّةٍ واحدة؛ فأنا لا أغشّ أبدًا كما تعلمين، سعر السمك يختلف من نوع لآخرَ. افعلي ذلك ريثما أطلب من جارنا الطيب «رحيم» ناقته لأحمل عليها السمك لأني لن أستطيعَ -بلا شك- حمل كل هذه السلال معًا إلى السوق البعيدة.

سعيدة:

- حسنًا يا زوجي الحبيب.

ذهب نيروز ليطلب الجمل من جاره «رحيم» الذي كان يساعده كثيرًا قدر ما يستطيع؛ فهو مَنْ أعطاه القارب وأدواتِ الصيد التي كان يدفع ثمنها على مراحلَ قدر ما يستطيع، وجاره هذا ميسور الحال كريم الطِّباع، يحبُّ نيروز كثيرًا، نيروز وكان نيروز ــ على الرغم من حاجته ــ لا يقبل الصدقة أو الهبة أبدًا، فكان يقبل الأدوات التي يعطيها إيّاه جارُه، لكن يدفع ثمنها كاملًا من كدِّ عمله.

وأثناء ذهاب «نيروز» إلى بيت جاره عكفتْ زوجته على ترتيب السمك كما أمرَها، لكنها لاحظت كثيرًا من الأصداف الكبيرة وسط السمك، وقالت

في نفسها:

- ما كل هذا السمك وكل هذا الخير؟ كيف وقعت كل هذه الأصداف في الشبكة؟ إنَّ رزق زوجي وفيرٌ، وفيرٌ جدًّا هذه الليلةَ!

وبدأت تَفصِل السمك عن الأصداف التي تبدو كبيرة، وأثناء نقل الأصداف إلى سلة منفصلة وقعَ مِن إحداها شيء أبيض يلمع بشدة؛ فصاحت:

- يا إلهي، ما هذا؟ إنَّه لؤلؤ، ما أطيب هذا الرزق! إنه في حدِّ ذاته كَنْزٌ.

وهنا أدركت أن قيمة الأصداف أكبر بكثير من قيمة السمك، وربما بداخلها مزيد من اللؤلؤ، وفي هذه الحالة سيختلف الأمر وسيكون سعر اللؤلؤ أضعافَ أضعافَ سعر السمك؛ بل إن هذا سيحلّق بهم إلى مستوًى آخر من المعيشة، وسيجنّبهم وَيْلاتِ الفقر والحاجة، وقد كانت الأصداف وسط السمك كبيرة وكثيرة.

وطرقَ بيتَ الجار ــ الذي يستيقظ بطبعه مبكرًا ــ نيروز، قال:

- السلام عليكم جاري الطيب.

رحيم:

- وعليكم السلام، أهلًا أهلًا جارنا الحبيب «نيروز» الذي لا يسأل عنّا منذ مدةٍ! تفضَّلْ يا عزيزي.

نيروز:

- أعتذر لك أخي «رحيم» عن مجيئي في هذا الوقت، ولولا علمي بأنك تحب الاستيقاظ مبكرًا لَما أتيتُ هذه الساعةَ.

رحيم:

- لا تقل هذا يا رجل، أهلًا بك في أيِّ وقت.

نيروز:

- لا أريد إزعاجك أيها الجار الحبيب، ولكن رزقني الله في الليلة الماضية بسمك وفير، وأردت أن أقترض ناقتك لِبِضع ساعات؛ لأحمل عليها السمك إلى السوق لبيعه، وأعيدها لك.

رحيم مبتسمًا:

- ما شاء الله، وسَّع الله في رزقك وبارك فيه! اخترْ أي ناقة تعجبك فهي لك، وإن أردت أن تأخذها وتدفع ثمنها قدر استطاعتك فخُذْها، فلديَّ من الإبل غيرها ولا حاجةَ لي بها.

نيروز:

- بارك الله لك في مالك أيها الجار الطيب، لا حاجة لي بها، فأنا -كما تعلم- أعمل بالصيد لا بالتجارة، سأقضي بها حاجتي وأعيدها لك سالمةً إن شاء الله، والآن ألتمسك عذرًا، فيجب أن أذهب إلى السوق مع بدايتها؛ فإنّ في البُكور بركةً، وكذلك أبيع السمك طازجًا، سأذهب مع غلامك لآخُذَ الناقة... في أمان الله.

رحيم:

- في أمان الله يا نيروز، أسأل الله أن يجعل يومك كله رزقٌ وبركةٌ، وأن يوفقك في بيعك وشرائك.

عاد نيروز إلى زوجته بعد أن عَقَلَ الناقةَ أمام بيته.

نيروز:

- كيف الحال يا زوجتي الحبيبة؟ أراكِ قد انتهيتِ من فرز السمك.

سعيدة:

- نعمْ يا نيروز.

وأكملت في فرح شديد:

- انظر ما وجدتُ!

نيروز متهللًا:

- أووه، هذه لؤلؤة! أين وجدتِها؟

سعيدة:

- سقطت من إحدى الأصداف وأنا أفرزها بعيدًا عن السمك.

وأكملتْ:

- ما أَعجبَ هذا الرزقَ الوفيرَ! تعجبتُ من وجود تلك الأصداف الكبيرة بين السمك! لم أرها قبل ذلك بالصَّدف في الشبكة.

قال نيروز فَرِحًا مرتبكًا إلى حدٍّ ما:

- هذا رزق الله يا زوجتي الحبيبة، أراد بفضله أن يعوِّضنا عن صبرنا خيرًا!

سعيدة:

- الحمد لله المُعطي الواهب الرازق بغير حساب، هل لي أن أقترح عليك ألَّا تبيع هذا الصَّدف؟ إنه يبدو فخمًا كبيرًا، وأظن أن ببعضه مزيدًا من اللؤلؤ، وهذا في حدِّ ذاته كنزٌ.

نيروز:

- إنْ كان حقًّا به مزيد من اللؤلؤ، فهذا خير كبير ورزق وفير، إنِّه في حدِّ ذاته ثروة كبيرة.

سعيدة:

- والآن اذهب يا عزيزي بالسمك إلى السوق، فقد رتَّبته لك كما طلبتَ، واترك لي اللؤلؤ (تداركتْ كلامها مبتسمةً)، أقصد المحار حتى أتفحَّصه بعناية.

نيروز:

- فَلْتستريحي قليلًا يا زوجتي الغالية؛ فأنتِ مِثلي لم تَنَمِي طَوالَ الليل، وأمْرُ المحار هيّن، ويمكنك أن ترتبيه وتفحصيه بعد أن تستيقظي..

سعيدة:

- لا عليكَ يا زوجي الحبيب، فأنا مِثلُكَ، ذهبَ النوم عن عينيّ عندما فُتّحت أبواب الرزق، امضِ إلى رزقك متوكلًا على الله؛ هو حافظك ورازقك بفضله ومَنِّهِ.

نيروز:

- حسنًا، في حفظ الله يا غاليتي.

حمل نيروز أسبتة السمك الكثيرة على البعير الذي أقرضه إياه جارُه، ومضى إلى السوق مستبشرًا متهللًا فرحًا....

وفي منزل نيروز ...

سعيدة:

- والآن يـا ابنتـي الجميلـة «فـيروزة» قـد اسـتيقظتِ، إني متفائلـة بوجـودك، فلْتسـاعديني في فتـح وترتيـب هـذه المحـارات الجميلـة، وسـأعطيكِ أغطيتها لتَصنعـي منهـا عقدًا وألعابًـا مختلفـة.

فيروزة في سعادة:

- نعـم يـا أمـي، فلـم أحصل على لُعبـة جديدة منذ أكـثرَ من عـام، وإني فَرِحَة بـكل هـذا المحـار، دَعِيني ــ أولًاــ أَعُدُّها فقـد تعلمت العدَّ جيدًا.

سعيدة:

- حسـنًا يـا بنتـي الحبيبـة، ابدئي العـدَّ، وبعدها نفتحها فنفحصهـا للبحث عن اللؤلؤ بداخلها.

فيروزة:

- وما اللؤلؤ يا أمي؟ وكيف يكون داخل محارة؟

سعيدة:

- اللؤلـؤ -يـا بنتـي- أحجـار كريمة غاليـة الثمن تتكـون داخل أصـداف المحار، واللؤلـؤ هـو الجوهـرة الوحيـدة التـي تتشـكل بفعـل الكائـن الحـي، وداخـلَ جسمه .

فيروزة:

- وهل يوجد اللؤلؤ هذا في كل المحار يا أمي؟ وما شكله؟

سعيدة:

- لا يـا حبيبتـي، وإلا لَرَخـص ثمنـه، وقلَّـت قيمتـه، وصـار متاحًـا للجميـع! إن قيمتـه في ندرتـه، ولـكِ أن تتخيـلي أنه يمكن اسـتخراج لؤلـؤة واحدة فقط من جُملـة (١٠،٠٠٠) صدفـة محـار، وفي بعـض الأحيان يكون بالمحـار الواحد أكثر مـن لؤلـؤة إذا تهيـأت الظـروف لذلـك، الأمر كلـه يعتمد على الـرزق وتوفيق اللـه، أمَّـا شـكلُهُ فقـد صادفتُ واحدةً منه سـقطت مـن إحدى المحـارات وأنا أعزلهـا عـن السـمك، وأكملـتْ ضاحكـة: والآن أغمـضي عينيـكِ حتـى أُرِيَـكِ إيَّاها.

فيروزة مُغمضةً عينيها وضاحكة:

- حسنًا يا أُمّاهُ، لا أُطيقُ الانتظار حتى أراها.

فتحـت فـيروزةُ عينيهـا لتشـاهد أجمـل مـا رأت عيناهـا، لؤلـؤةً هـي غايـة الروعـة، تشـعُّ بياضًـا ولمعانًـا، أمسـكتْ بهـا وهـي فَرِحـة، وقالـت:

- هيَّا يا أمي لنجمع باقي اللؤلؤ، لا أطيق صبرًا!

سعيدة:

- مهـلًا حبيبتـي؛ فاللؤلـؤ -كـما ذكـرت لـكِ- نـادر جـدًّا، وهـذه المحـارات لا تتعـدى مائتَـيْ محـارةٍ، وبالحسـابات المعروفـة لمعدَّل وجود اللؤلـؤ في المحار، ربمـا لا نجـد فيهـا إلا واحـدة أخـرى فقـط، إذا كنّـا مـن المرزوقين.

فيروزة:

- أشـعر بالتفـاؤل يـا أمـي الحبيبـة، هيَّـا بنـا نفحـص المحـار... ولكـن كيـف عرفـتِ كل هـذا عـن اللؤلـؤ يـا أمـي؟

سعيدة:

- جَدُّك ــ رحمه الله ــ كان من أشهر جامعي اللؤلؤ في القرية، وكنتُ أساعده في فرز المحار، وأحيانًا كنت أذهب إلى البحر معه لأساعده بعد أن كبرَتْ سِنُّه وضعفَ جسمُهُ، وهو مَنْ علمني كل شيء عن اللؤلؤ وعن الصيد، وقد تلاقينا أنا وأبوكِ في إحدى رِحْلاتي مع جدك، وتقاربنا أنا وهو، وقرَّر أن يتزوجني وطلب يدي مِن أبي ــ رحمه الله ــ بعدَ أولِ مرة التقيت به، آه! ذكّرتِني بأيام جميلة، وذكّرتني بجدّك يا بنتي، والآن ابدئي، أنا متفائلة بكِ...

وبدأت الطفلة «فيروزة» بأول محارة، وما إن فتَحتْهَا حتى وجدتها ممتلئة باللؤلؤ، فتهلَّلت فَرِحة:

- ها أنا ذا يا أمي، انظري! أكثر من عشر لآلِئَ في محارة واحدة.

نظرت الأم في رِيبة وذهول؛ لأنّ أباها كان من جامعي اللؤلؤ، وتعرف جيدًا أن هذا أمر شِبهُ المُستحيل، مُحالٌ وجودُ كل هذا اللؤلؤ في محارة واحدة، ولكنها ظنَّت هذا مجرَّد صُدفة، وظلَّت مذهولة محدِّقة بعينيها غيرَ مصدقة، حاولت إظهار الابتسامة وإخفاء ذهولها، وقالت لابنتها:

- هيَّا استمري يا بطلتي في فحص باقي المحار؛ فما زلت متفائلة، ستجدين المزيد من اللؤلؤ...

فتحت فيروزة المحارة التالية، ففوجئت بالقدْر نفسه من اللؤلؤ فيها، وزاد وَجَلُ الأم، ولم تنطق بكلمة، وابنتُها تخاطبها:

- ماذا هُنالِكِ يا أمّي؟ أهُناك خَطْبٌ ما؟

سعيدة في توتُّر:

- ل ل لا يا بنتي، استمري فحسْبُ في فحص ما تبقَّى من المحار معي!

حاولت «سعيدة» إخفاء قلقها الشديد من أمر كل هذا اللؤلؤ المُحال أن يُوجَد بهذا الكمّ كلّه في عدد قليل من المحار، بل إنّ وجوده بهذه الكثرة داخلَ المحارة الواحدة هو أمر مستحيل أيضًا! شرعت سعيدة بتحفز شديد في فحص ما تبقَّى من المحار مع ابنتها... وكانت المفاجأة!!

كل المحار الذي تفتحانِهِ ممتلئ باللؤلؤ، واستمرّتا على هذا الحال حتى انتهت «سعيدة» وابنتها من فتح جميع المحار، وهي في خوف وذهول شديديْن لاحظتْه عليها ابنتها بوضوح، وجُمع ما يزيد عن ألف حبّة لؤلؤ، وضعتْها «سعيدةُ» بعناية في بعض ما يمتلكون من أقمشة قطنية قديمة، ومنها إلى صِرار جلدية بعد تنظيفها، وكانت -بخِبرتها مع والدها- تعرف جيدًا كيف تستخرج اللؤلؤ بحرصٍ وكيف تجمعه وتحفظه...

سعيدة كانت تقول في سرِّها:

- الأمر فيه سرٌّ، يجب أن أعرفه، كل ما حدث الليلةَ الماضية مِن سمك وفير جدًّا، ومحارٍ، ولآلئَ، فوقَ التصوُّر، لا بُدَّ أن وراءه سرًّا لم يخبرني «نيروز» به، واختلطت لديها مشاعر الفرح والخوف والقلق، وأخْفت اللؤلؤ بشكل آمن في خزانة الملابس، وذهبت في سُباتٍ عميق مِن فرط تعبها.

وفي السوق... وصل «نيروز» محمِّلًا البعير بأسماك كبيرة طازجة، وذهب إلى رُكن بيع السمك في السوق، ولَقِيَهُ أحد التجار هناك...

التاجر:

- السلام عليكم يا أخي، ما كل هذا السمك؟ أأنت تاجر أم صياد؟ هيئتك تدل على أنك صياد، ولكن السمك الذي معك يوحي بأنك تاجر أو صياد، جمعتَ السمك من أقرانك الصيّادين لتبيعه لهم! على كلِّ حال، هل لي أن أفحص ما لديك من سمك، وأعرض عليك سعرًا له؟

نيروز مبتسمًا:

- وعليكم السلام أيها التاجر السَّمِح الذي يسأل كثيرًا، لا تشغل بالك ما عملي، ولا من أين أتيت بهذا الرزق الوفير، فقط اعطني فيه سعرًا جيدًا، وليبارك الله لنا...

أناخ «نيروز» الناقة، وأنزل أسبتة السمك، وظهر فيها سمك كبير طازج ممتلئ، وهو ما لفت انتباه التاجر.

التاجر:

- ما أطيبه من رزق! بِكم تبيع هذا السمك؟

نيروز:

- بالسعر المتعارف عليه في السوق لا أكثر ولا أقل، ولكن عليك وزنه أولًا.

تم وزن السمك ونال «نيروز» عنه عشر قطع ذهبية، وهو ما يساوي دخله من السمك في عام كامل، ولكن لندرة الأنواع التي أتى بها ولحجمها وكثرتها جمعت له ما يعتبره ثروة طائلة.

لم يصدِّق نفسه من فرط فرحه، واشترى لزوجته وابنته بعض الحُلي والملابس الحريرية، واللحوم والفطاير والطعام الطيب، واشترى عباءةً

قيِّمةً هديةً لجاره، وتعاهد على إيجار أحد دكاكين السوق، وعاد إلى زوجته فَرِحا.

وقبل دخوله بيته أعاد الناقة إلى جاره الطيب «رحيم»، وأعطاه الهدية التي فَرِح بها كثيرًا وشكره عليها، ولَم يشأ أن يرفضها برغم علمه بحاجته حتى لا يجرح مشاعره.

وعاد مسرورًا فَرِحًا إلى بيته، ومعه الهدايا والطعام وباقي القطع الذهبية في صرَّة آمنة في جيبه، وطرق الباب بعد أن لاحظ أن زوجته قد نامت من فرط تعبها...

وبعد برُهة فتحت «سعيدة» الباب، وقد ظهرت عليها علامات الإعياء والحزن بوضوح..

نيروز:

- حبيبتي، انظري بماذا أتيت لكم وقد بعت السمك بعشر قطع ذهبية، وهو ما لم أحصل عليه في صيد عام كامل، ولكن لندرة الأنواع التي أتيت بها ولكميتها الكبيرة حصلت على كل هذا المال الوفير، وحين نبيع اللؤلؤة سوف نحصل على عشر قطع ذهبية أخرى.

سعيدة:

- حمدًا لله على سلامتك يا نيروز، وشكرًا على هداياك الجميلة، ولكن اخفض صوتك قليلًا؛ لأن فيروزة ابنتنا ما زالت نائمة.

نيروز:

- حسنًا حبيبتي، ولكن مالي أراكِ مهمومة بعد كل هذه الأخبار الطيبة

والرزق الوفير، هل هناك خطب ما لا سمح الله؟

سعيدة:

- تعالى معي إلى غرفتنا يا زوجي.

ومضى معها «نيروز» إلى الغرفة وهو في حالة ترقُّب، وبعد لحظة فتحت خزانة الملابس وأحضرت عددًا كبيراً من الصُرَّات الممتلئة بشيء مجهول لنيروز، وما إن فتح عددًا من هذه الصُرَّات حتى وجدها ممتلئة جميعًا بأجود أنواع اللؤلؤ، وقال في تعجُّبٍ شديد مختلط بالفرحة:

- ما كل هدا يا زوجتي الحبيبة؟

سعيدة وقد أخفت دهشتها وغضبها قليلًا:

- أنا من يَسألُ يا نيروز، ما كل هذا؟

نيروز في تعجُّبٍ شديد:

- تسألينني!

سعيدة:

- اليومَ بعدَ أن ذهبت إلى السوق جلسنا أنا وفيروزة لنفحص المحار الذي أتيت به مع السمك ليلة أمس، وكان عجبًا أن يكون كل هذا المحار مع السمك، لم أرَ هذا في حياتي وأنا ابنة أشهر جامع للؤلؤ في قريتنا كما تعلم، المهم عكفنا أنا وابنتك لفحص المحار ووجدناها جميعًا ممتلئة بأجود أنواع اللؤلؤ، وهذا أمر ــ كما تعلم وأعلم ــ مستحيل. أيُّ سرٍّ تخفيه عني يا نيروز؟ وماذا حدث ليلة أمس حتى أتيت بكل هذا السمك والمحار واللؤلؤ؟ أنت تعلم جيدًا أني أقبل العيش في الفقر المُـدْقِع مدى حياتي،

ولكـن لا أقبـل عليـك وعـلى بيتي أن ننعـم برغد العيش من الحـرام، ولا أقبل لقمـة عيـش واحـدة من حـرام، نحـن بيننا عِـشْرة ومحبـة، وأنا أعرفـك جيدًا، مكافـح تأخـد بالأسـباب، ولا تقبـل على نفسـك وأهل بيتـك الحـرام أبدًا...

نيروز مقاطعًا في ذهول وارتباك، محاولًا معالجة الأمر بهدوء:

- مـاذا إذًا يـا سـعيدة؟ هـل تظنـين أني مـن الممكـن أن أقبـل الحـرام وأنـتِ تعلمـين كل الفـرص التـي عُرضـت عـليّ ولم أقبلهـا لمجرد شـكي فيهـا، ولم أقبل حتـى أن آخـذ صدقـة أو هديـة، وحتـى مـا سـاعدني بـه جـاري مـن قـارب وشِـبَاك رددتُ ثمنـه كامـلًا لـه. لا تظنـي السـوء أبـدًا في زوجـك؛ فأنـا ـــ كـما تعلمـين ـــ مَـنْ يأخـذ بأسـباب الرزق، ولا يـرضى الحـرام أبدًا على نفسـه ولا عليكم .

سعيدة:

- عـذرًا يـا حبيبـي، فلـم أقصـد أبـدًا أن أسيء إليـك، وأعلـم أن أنـا وأنت على نفـس المبـدأ، ولكـن لم أجـد تفسـيرًا لمـا حـدث، والشـيطان يوسـوس بـرأسي وأنـت خـارج المنـزل، ولا أظـن حاجتنـا إلى الطعـام والكسـاء قـد سـببت لـك ضعفًـا؛ فقبلـت السرقـة أو أي نـوع مـن الحـرام، ولكن عقلي سـيشرد ولم أجد تفسـيرًا لـكل مـا أتيـت بـه مـن لآلـئ في كل المحـارات، ومـن قبلهـا سـمك لم أعهده أبدًا.

نيروز وقد رَبَت على كتف زوجته في هدوء:

- سـأحكي لـك كل شيء يـا زوجتـي الحبيبـة، ولكن قَـرِّي عينًـا؛ فزوجك لم ولن يقبـل أن يُدْخِـلَ لقمـةَ حرام عليكـم أبدًا، كان يجب عـليَّ أن أخبرك بكل شيء

مـن البارحـة، ولكن خفت أن ينشـغل بالـك عليّ، ومـا أردت أن أرهقك بكثرة القلـق والخوف على زوجـك حبيبك...

ذهبـتُ ليلـة أمـس متـوكلًا عـلى ربي، آخـذًا بأسـباب الـرزق وعزمـت ألَّا أعود لكـم إلا بوافـر رزق أُوسِّـع به عليكم، واسـتمرَّ الأمرُ أربع سـاعات بلا سـمكة واحـدة ثـم .... وروى «نـيروز» قصـة مـا حـدث معـه بالتفصيـل والحوريـة التـي أُسِرَت في شـبكته، وكيـف أخرجهـا ثـم كافئتـه بهـذا الخـير الوفـير إلى أن أتى متأخـرًا إلى البيـت...

سعيدة في ذهول وقلق شديدين، محتضنة زوجها ولم تُخفِ دموعها:

- لقـد أقلقنـي كثـيرًا مـا حـدث، وكان مـن المكـن أن تحملَ لك هـذه الحورية الـشرَّ وتهلـكك أو تـأسرك عشـيرتها، وأنـت تعلـم أن كنـوز الأرض جميعًـا لا تسـاوي عندنـا يومًـا بدونـك، لا تذهـب هنـاك مـرة أخـرى، أرجوك..

نيروز وهو يمسح دمع زوجته:

- هَدِّئي من روعك يا زوجتي الغالية، واسمعيني.

سعيدة:

- كلي آذان صاغية، ولكن لا تخبرني أبدًا أنك ستعود للحورية.

نيروز وهو يُربتُ على كتفها ويديها:

- زوجتـي الحبيبـة، اهـدئي رجـاءً واجلـسي واسـمعيني، الآن سأسـتريح قليـلًا بعـد أن نتنـاول الغـداء معًـا وارجعـي اللؤلـؤ إلى مكانـه وسـأخبرك بمـا أنتويه بعـد الراحـة، وسـيكون الخـير إن شـاء الله.

هـدأت «سـعيدة» وأكلا طعامًـا طيبًـا مـما جلبـه مـن السـوق، واسـتيقظت ابنتهـم «فـيروزة»، وفرحـت بمـا أحـضره لهـا أبوهـا من حُـلي ولعـب وملابس جديـدة لم تعهـد ذلـك أبـدًا مـن قبـل، وبعـد ذلـك ذهب «نـيروز» في سُـبات عميـق كأنـه لم ينـم مـن قبل.

وفي المساء ...

سعيدة:

- استيقظ يا زوجي الحبيب يبدو لي وكأنك لم تَنَمْ من دهر.

اسـتيقظ «نـيروز» مبتهجًـا بالحـال التـي صار عليهـا، وبعد أن أفـاق طلب أن يجلـس منفـردًا مـع سـعيدة ليخبرها عن خططه، وقد انشـغلت ابنتهـم فَرِحَة بملابسها وألعابها الجديدة.

نيروز:

- والآن يـا سـعيدة، لقـد كانت الحورية سـببًا في أن أحصـل على كل هذا الخير الوفـير، ولا أظنهـا تريـد بي سـوءًا بعـد كل هذا، ولا تقلقي فلسـت أنـا بالرجل المتـواكل الـذي يبحـث عـن الـرزق السـهل لأذهـب لهـا في كل مـرة محتاجًـا، ولـن يمـلأ طمـع الإنسـان كنـوز الأرض جميعًا كما تعلمـين، أمَّا السـمك فأظنه رزقـي الـذي قصـدت وجـه اللـه طالبًـا إيَّـاه، وأمـا اللؤلـؤ فـلا حاجـة لي بـه لأني لم أخـرج طلبًـا لـه، ولعلـه ملـك للحوريـة وقـد عَلِـق بالشـبكة بغير قصد لفـرط ارتباكهـا بعدمـا حرَّرتهـا مـن الشـبكة، والآن سـأعيد لهـا اللؤلـؤ كامـلًا الشـهر القـادم، أمَّـا السـمك فقـد بعتـه وحصلـت عـلى عـشر قطـع ذهبيـة، وهـي بالنسـبة لي ثـروة ليسـت بالقليلـة، وأثنـاء وجـودي في السـوق وجدت

دكانًا للإيجار اتفقت مع صاحبه على أن أؤجره وأدفع له قطعة ذهبية في كل شهر، وأظن عائدَ هذا الدكان سيكون ثلاثة أضعاف، وذلك على أقل تقدير، وإذا فتح الله عليَّ سأشتري الدكان وأتوسَّع، ولا أحتاج إلا لدعائك.

سعيدة:

- لا لا، لن تذهب مجددًا إلى الحورية.

نيروز:

- هذه أمانة يا زوجتي، أترضين أن يكون زوجك خائنًا للأمانة؟!

سعيدة:

- لا والله لا أرضى، حسنًا في هذه الحالة لي شرط واحد.

نيروز:

- شرط! أيُّ شرط؟

سعيدة:

- لن تذهب إلَّا وأنا معك، فنعود سويًّا أو نهلك سويًّا، وسأترك ابنتنا عند أمي ريثما نعود لا تقلق.

نيروز مبتسمًا متعجبًا:

- حسنًا، لك هذا، وإن كنت أشفق عليكِ من جو البحر ودُوَارِه ومخاطره.

سعيدة: لا تقلق، فأنا كما تعلم لدي خبرة في ركوب البحر عندما كان يصطحبني والدي رحمه الله.

بـدأ «نـيروز» يمـارس مهـام تجارته، وعـزم أن يعيـد اللؤلؤ إلى الحوريـة بعدما تكـبر تجارتـه وينجـح، بعـد أن أخـذ بأسـباب النجـاح، غـير معتمـد عـلى كنـز يشـك في مصـدره، وبعـد شـهور قليلـة اشـترى الـدكان الـذي كان يسـتأجره، وأصبـح لـه عـدد مـن الدكاكـين غـيره، ووسَّـع عـلى أهـل بيتـه واشـترى دارًا جديـدة، وفي ليلـة مظلمـة قـرَّر أن يذهـب إلى الحوريـة باللؤلـؤ ليعيـد لهـا أمانتهـا وأحسَّـت بذلـك زوجتـه التـي ذكَّرته بشرطهـا، ألا وهـو أن تصحبه إلى الحوريـة، ولمَّـا علـم إصرارهـا لم يجـد بُـدًّا مـن أن يأخذهـا معـه بعدمـا تـركا ابنتيهـما في أمـان مـع جدتهـا.

ركـب «نـيروز» مـع زوجتـه في قاربـه الجديـد الـذي كان أكـثر متانة، وأحسـن حـالًا مـن قاربـه القديـم، وبعـد أن وصـل إلى حيـث التقـى بالحوريـة، وكان يعـرف المـكان جيـدًا مـن لون مائـه واتجاهاته، وظـلا منتظرين في بـرد وظلام دامـس مخيـف، وكانـت زوجتـه «سـعيدة» ترتجـف، ولـولا وجودهـا معـه لتوقَّـف قلبهـا مـن فـرط خوفهـا، وفي أثنـاء هـذا كان ينـادي «نـيروز» عـلى الجِنيَّـة علَّهـا تسـمعه، لكـن للأسـف لم تظهـر طـوال الليـل حتى أقبـل الصبح وعـادا إلى بيتهـما.

هـذا قـد زاد «نـيروز» عزمًـا عـلى أن يعـود، وظـلَّا عـلى هـذه الحالـة ثلاثـة أيـام متواصلـة، وفي منتصـف الليلـة الرابعـة بعـد أن بلـغ بهـما اليـأس مبلغًـا إذا بموجـة مرتعشـة تحيـط بالقـارب، وفي لحظـة خـرج منهـا وجـه فتـاة (إنَّها الحوريـة التـي يعرفها)، وعند خـروج وجهها من الماء في هـذا الظلام الدَّامس، وقعـت عـين «سـعيدة» على عين الحورية اللامعة بخوف شـديد وتسـمَّرت في مكانهـا، محدِّقـة بعينهـا وممسـكة بشـدة في زوجهـا، نعـم قـد حكى لهـا عنها

زوجها، لكن الحقيقة غير الحكي، وارتعش جسدها وبدأ يهدئها زوجها بعد أن أحسَّ بخوفها وفزعها الشديد.

نيروز:

- اهدئي يا «سعيدة» اهدئي ولا تخافي.

«سعيدة» لم تنطق بكلمة واحدة، وظلَّت محدقة بذهول في عيني الحورية. خرجت الحورية بالتدريج من الماء حتى ظهر منتصف جسمها الأعلى، وكان على هيئة فتاة لكن الموقفَ رهيبٌ.

الحورية:

- مرحبًا بالصياد الطيب الأمين وبزوجته المذهولة الخائفة، هدِّئي من روعك حبيبتي عليكم السلام والأمان.

نيروز:

- وعليكم السلام أيتها الحورية الطيبة الكريمة.

بدأ يذهب الرَّوع شيئًا ما على «سعيدة»

سعيدة مرتبكة:

- و و وعليكِ السلام، و وكيف عرفتِ أني زوجته؟

الحورية في هدوء ورفق:

- سأخبركم بكل شيء يا «سعيدة» لا تقلقي.

أما عن معرفتي بصفتك واسمك؛ فقد كنت أسمعكم على مدى الليالي الثلاث الماضية، وأسمع حديثكم الذي علمت منه أنكِ زوجته، وفي الليلة الأولى عزمت أن أخرج من فوري للقاء زوجك الطيب كما وعدته أنه إذا احتاجني سيجدني، ولكني مجرد أن سمعت صوتك ترددت ولم أخرج حتى

أتبين الأمر وأعرف من أنتِ، وقبل أن أكمل أريد أن أعرف أولًا ما منعك أيها الصياد الطيب من زيارتنا كل هذه الفترة؟

نيروز:

- أردت فقط ألَّا آتيكِ هذه المرة محتاجًا، وعزمت على العمل بتجارة السمك من المال الذي حصلت عليه من السمك الذي أعطيتني إيَّاه، وقرَّرت أن آتيكِ وأنا في حال أحسن لا لطلب المساعدة، ولكن للشكر ورد الأمانة.

الحورية في تعجُّب:

- أمانة! أيُّ أمانةٍ؟

نيروز:

- لقد عَلق بشبكتي حينما جمعتِ لي فيها السمك الكثير من المحار الممتلئ عن آخره بأجود أنواع اللؤلؤ، ولعلَّ هذا جزء من كنزك ومالك، وما أردت أنا وزوجتي أن نأخذه أبدًا، وقرَّرت أن أحفظه وأعيده إليكِ.

الحورية في ضحك شديد:

- أرني هذا اللؤلؤ.

أعطاها «نيروز» كيسًا من اللؤلؤ وهو متعجبًا من ضحكها

الحورية:

- إذًا، هذا ما تسمونه لؤلؤًا وما قيمته لديكم؟

نيروز:

- هـذا بحـدٍّ ذاتـه كنـز، وقـد جمعنـا مـن محاراتـك أكـثر مـن ألـف لؤلـؤة، ثمـن الواحـدة منهـا يعـدل ثمن جميـع السـمك الـذي اصطادته في تلـك الليلة الطيبة.

الحورية مستمرة في ضحكها...

نيروز:

- لا أدري ما العجب؟ وما يضحكك؟

الحورية:

- هل للصخر والحجر عندكم قيمة مهما اختلف لونه وشكله؟

نيروز:

- لا، إنه يباع بالأطنان حتى تصبح له قيمة بسيطة.

الحورية مبتسمة:

- كذلـك هـو مـا تسـمونه اللؤلؤ عندكم لا يعنـي لدينا كونه حجـرًا، وقد كنت أعـرف أن لـه قيمـةً عندكـم فجمعـت لك كميـة منـه ووضعتهـا في الأصداف، ولكـن لم أكـن أتخيـل أن قيمتَه ثمينة لهـذه الدرجة، وظننـت أنَّ الألف لؤلؤة هـذه تعـادل قيمة السـمك، فأردت مضاعفـة عطيتك، وما كنـت أظنها بهكذا قيمـة، وأعلـم أني كنـت أتابعـك كثيرًا، وكنـت أعجب عـلى إلحاحـك في طلب الـرزق ودعائـك الدائـم، ومكوثـك كثيرًا لوقـت متأخر من الليـل بصبر عجيب دون كلـل أو تزمـر، وكنـت حامدًا شـاكرًا لله في كل وقتك. ولأنـه ممنوع علينا الاتصـال ببنـي البـشر فقـد قـرَّرت أن أسـاعدك دون أن تـدري، وقـد جمعـت

لـك هـذه المحـارات الممتلئة باللؤلـؤ في الليلة السـابقة لليلة التـي وقعت فيها في شـبكتك. أمَّـا في تلـك الليلة حزنت كثـيرًا لحالك بعد أن ظللـت طوال الليل بـلا سـمكة، وقـد سـمعت مناجاتـك ودعائـك لله، وعزمـت أن أضع كثـيرًا من السـمك والمحـار الذي ملأته بما تسـمونه لؤلـؤًا، وما إن جذبتُ الشـبكة لأضع هـذا فيهـا، حتى عَلقت الشـبكةُ بي، ولم أسـتطع تخليص نفسي.

كل هـذا تحكيـه الحوريـة، وكلٌّ مـن «نـيروز» وزوجته «سـعيدة» يسـتمعون في إصغاء شـديد وذهول...

وأكملت...

وبعـد أن وقعـت في شِراك الشـبكة حاولـت بـكل جهـدي أن أُخلِّـصَ نفـسي دون جـدوى؛ لهـذا كانـت الشـبكة ثقيلـة جـدًّا وأنـت تجذبهـا، ولا أخفيـك سرًّا أني خفـت أن تـأسرني لتبيعنـي، أو تُـحنِّطني لتجعـل منـي تحفـةً غاليـة، ولكـن عندمـا تذكـرتُ طيبتـك هدأ روعـي وقلَّ خـوفي. وعندما رأيـت وجهي وارتعبـت وألقيـت الشـبكة تأكـدتُ مـن صـدق حـدثي، وأنـك لـن تُلْحِـقَ بي سـوءًا؛ لذلـك لم أهـرب وطلبـت منـك أن تخلصنـي مـن الشـبكة، وكنـت عند حسـن ظنـي، ولم تطلـب منـي جـزاءً عـلى فـكك لأسري، وأسرعـت للعـودة لبيتـك وأنـا مَـنْ طلبـت أن أجازيـك.

وأكملت الحورية:

- وأيضًـا لم تكـن اسـتغلاليًّا فاعتمـدتَّ عـلى نفسـك، ولم تعـد لي هنـا مجـددًا لطلـب الـرزق السـهل، وهـا أنـت اليـوم تبرهـن عـلى أمانتـك وأمانـة زوجتك التـي أعانتـك عـلى أدائهـا، ولم تقبـل مـالًا مشـكوكًا فيـه مهـما كانـت قيمتـه،

كنز كان أو ثروة مهما كانت حاجتك، ولم تشأ أن تبدأ تجارتك إلا بمال لا تشك فيه، لذلك يسَّرَ اللهُ لك، وفتح لك أوسع أبواب الرزق، والعجيب أنك قصدت أن تأتيني بعد صلاح أحوالك حتى لا أظنك أتيت محتاجًا؛ بل أتيت رادًّا للجميل بالشكر وردِّ الأمانة. ما أطيب خلقك وأمانتك وكفاحك أيها الصياد الطيب! وما أطيب خُلق زوجتك التي أعانتك على الأخذ بالأسباب والرزق الحلال!

وأكملت الحورية:

- أمَّا هديتك أيها الصياد الطيب من طعام وفاكهة الأرض الطيبة فقد قبلتُهَا، وأمَّا اللؤلؤ فأعرف أنك لن تقبَلَه فأنت لا تقبل العطايا، ولكن لا حاجة لي به كما أخبرتك فاستثمره في عمل الخير ومساعدة المحتاجين، وكأني شاركتك به في تجارتك تأخذ نصف مكسبه حلالًا طيبًا لك نظير إدارته، وأمَّا نصف الربح الآخر فهو لي، وأنا وهبته للفقراء والمحتاجين في بلد تكم .

سلَّم «نيروز» وزوجته «سعيدة» على الجِنيَّة، ولم يكن لهما تعقيبٌ على كلامها الطيِّب، فقد وافقا على مقترحها ورجعا سعيدين إلى قريتهما، لا بسبب صلاح أحوالهما فقط، وإنما لأنهم سيكونان سببًا في خير كبير لكل فقير ومحتاج في بلدتهم.

ونفَّذ «نيروز» وصية الحورية، وباع جميع اللؤلؤ وكان ثروة عظيمة، ودوَّن قيمته كاملة في سجلات حتى يديره دون أن يختلط بماله، وتوسَّع في تجارته حتى صار أكبر تاجر في سوق المدينة، وقدَّم المساعدة لكل محتاج، بل صنع مشاريعَ لشبابِ القرية وعلَّمهم كيف يكونوا ناجحين متوكلين غير

متواكلين، وكانت مساعدته هكذا دائمًا أن ينمِّي للمحتاج تجارة، أو يبدأ له مشروعًا دون أن يساعده بالمال مباشرة حتى لا يتواكل، وكان كل هذا من نصيب ربح الحورية، بل أضاف له كثيرًا من ماله الخاص حتى أصبحت مدينتهم تخلو من أيِّ فقيرٍ أو كسول، وصار يستثمر في المدن المجاورة وتنميتها...

وفي وسط كل هذا لم ينسَ «نيروز» زوجته وابنته وابنه الذي رُزِق به حديثًا، فكان يُغدق عليهم بالحنان والرفق والمودة، ويمنحهم من وقته الكثير رغم انشغاله الدائم.

ولم ينسَ «نيروز» الحورية أيضًا والتي كان يزورها في كل شهر مرة في ليلة غير مُقْمرة كعادتها، وكان يأتي لها بطعام الأرض وفاكهتها الطيبة في كل مرة، ويحضر معه سجلات التجارة ليُطلعها على كل ربح من مالها، وكيف أنفقه على الفقراء والمحتاجين في صورة مشاريع نافعة.

لقد كافح واجتهد بلا يأس وبيقين في فضل الله، فتسبَّبت له الأسباب، فكان «نيروز» سببًا في الخير ليس لنفسه وحسب، وإنما لأُسرٍ محتاجة لا حصر لها، بعد أن فتح الله بابًا للخير؛ فكان سببًا في فتح أبواب أخرى لخير متصل، وعاش هو وزوجته «سعيدة» وابنه وابنته «فيروزة» في سعادة دائمة إلى ما شاء الله.

***

تعقيب: قصص الاتكالية وصناعة الوهم

الكثير من قصص الأطفال تدعو إلى الاتكالية، والوصول إلى أعلى درجات النجاح والثروة بالطريق السهل دون الأخذ بالأسباب والسعي نحو الهدف، مثل هذه القصص تقتل روح العزيمة والاجتهاد لدى الطفل، فيظنون أنَّ النجاح سهلًا ولا يحتاج أي جهد يُذْكر، وبمزيد من الحظ تصل لأعلى درجات النجاح سفهًا، وتجعل مثل هذه القصص خيالَ الطفل متعلقًا بمعجزات وأحلام واهية ليس لها وجود في الحقيقة، كأنْ يجد ثروة طائلة أو يصادف جنيًّا يحقق كل أحلامه وهو مكتوف الأيدي لا يبذل جهدًا يُذْكر.

ولهذا تدبُّ روح اللامبالاة والكسل والاتكالية لدى الطفل؛ لأن مثل هذه القصص تَرْسخ في وجدانه؛ ولأنه ليس لديه القدرة على التحليل المنطقي لمثل هذه الأحداث الخيالية، فيظل عقلُه متعلقًا بمعجزات وخوارق لا وجود لها. ولا بأس أبدًا أن نلجأ للخيال في قصص الأطفال كما ظهرت الجنيَّة للصياد في القصة السالفة، ولكنه لم يجعل ظهورها في حياته وسيلةً للوصول للنجاح؛ بل جعله مجرَّد خيط ساعده في الأخذ بالأسباب، واستمرَّ في عمل دؤوب ليل نهار؛ ليتاجر ويربح ويساهم في نشر الخير، حتى عندما قرَّر أن يساعد غيره من المحتاجين لم يشأ الصياد أن يجعلهم كُسالى متواكلين، ولم يعطهم المال بشكل مباشر فينفقوه ويعودون لأدراجهم كُسالى محتاجين متسولين، بل اختار أن يساعدهم في تجارة، أو عمل نافع في حدود إمكانيات وقدرات كل واحد منهم. تلك هي الروح التي يجب أن نعزِّزَها في فكر وكيان وعقول الأطفال، وكما ذكرت لا بأس بأن

نستخدم الخيال في صور بنَّاءة كأن نصورَ بعض الحيوانات وكأنَّها تتكلم لتصل بالرسالة إلى الطفل في صورة شيِّقة ممتعة، كل هذا من أساليب التشويق والجذب للطفل، لكن المشكلة الكبرى تتجلَّى حين يصبح هذا الخيال مجرَّد وسيلة سهلة لتحقيق الأحلام والوصول للنجاح دون بذل جهد يُذكر، وبذلك تصبح مثل هذه القصص من الوسائل الخَطرة لفشل الطفل على المدى البعيد، أو وسيلة خصبة تجعله يحيا في أحلام اليقظة، منعزلًا تمامًا عن الواقع في أوهام يرسم فيها لنفسه نجاحات وأحلام لم يصل إليها إلّا في خياله؛ ولذلك علينا أن نعيَ المدى البعيد لأثر مثل هذه القصص على تكوين وتوجُّهَات الطفل مستقبلًا، فالأمر يبدو بسيطًا في ظاهره، فنراها مجرَّد قصص للتسلية والمتعة، ولكن في حقيقتها هي وسائل لصناعة الوهم والتخلف والانعزالية عن الواقع بكل تحدياته ومتطلباته. النجاح لا يكون أبدًا للكسالى المتواكلين، النجاح يحتاج إلى السعي الحثيث للأخذ بأسباب الوصول إليه بعد توفيق الله، هو ليس حظًّا يأتي صدفةً، أو جنّيًّا يحقق الوصول لأعلى درجات الثروة والطموح، وليس النجاح زائرًا يأتينا صدفة، إنماهو هدفٌ نسعى إليه بجهد ويقين. جُلُّ قصص الأطفال تفتقر لهذه الحقيقة للأسف، وتفتقر إلى أدنى درجات المنطق، معلَّلين ذلك بأنها مجرَّد قصص خيالية بهدف التسلية وحسب، ونسوا الرسالة السامية التي يجب أن تكون وراء مثل هذه القصص، يجب أن تكون هناك وقفة جديَّة بمراجعة كل ما يعرض على الأطفال، ومعرفة الرسالة المنوطة به، أهي حقًّا تُرسِّخ لروح الفضيلة والسعي الدؤوب للوصول للهدف؟ أم أنَّها مجرد تُرَّاهَات تأخذ الطفل إلى عالم من الوهم والاتكالية للوصول لنجاح سهل بلا أي جهد ملموس، أو سعي حقيقي نحو الوصول للهدف.

(٣)
القط «الصادق» ذو القبعة والحذاء

في قديم الزمان كان يعيش طحَّان وأولاده الثلاثة في أسرة ميسورة الحال، توفيت والدتهم منذ زمن، وكان هذا الطَّحَّان الطيب يربي أبناءه على المحبة فيما بينهم وعلى الكفاح، وكان يولي مزيدًا من الاهتمام لابنه الأصغر سنًّا؛ لأنَّه حُرِم من حنان أمه التي ماتت وهو لم يكن يتعدى سنتين من عمره.

في يوم من الأيام مرض الطَّحَّان مرضًا شديدًا، وجمع أبناءه حوله.

الطَّحَّان:

- اليوم يا أبنائي أغادر الدنيا وأنا مطمئن عليكم، وقد تركتكم رجالًا يُعتمد عليكم.

الابن الصغر رشدان:

- لا تقلْ هذا يا أبي الحبيب أطال الله عمرك...

الطَّحَّان مقاطعًا:

- لا تقاطعني يا ولدي، لقد حان الأجل، وما أرجوه منكم أن تكملوا مسيرتي، وأن يعتمد كلٌّ منكم على نفسه، وأن تتحلَّوا بالصدق والأمانة التي ربيتكم عليها، وأن تأتوا حق الفقير في أموالكم.

وأكمل..

- أمَّا تَرِكَتي فسوف أقسِّمُها عليكم كما يلي، لـ«سمعان» ابني الأكبر الطاحونة تمتلكها وتستمر في إدارتها بما يرضي الله، وأن تُيسِّر على كل فقير غير قادر، ولا تحاسبه بنفس حساب الغني، وأن تُخْرِجَ حقَّ الله في مال الله الذي أوكلك فيه...

سمعان فرحًا:

- أشكرك يا أبي، وسأعمل بوصيتك، ولن أخذلك أبدًا وأشكرك على ثقتك الغالية...

الطَّحَّان:

- وأمَّا المزرعة وما فيها من إبل وأغنام وأحصنة فهي من نصيب ابني الأوسط «حمدان»، تزرعها بإخلاص وتزيد على ما فيها من أغنام وإبل، ولا تنسى حق الفقير في زرعك ودوابك ومالك، ولا تظلم أحدًا ولا تغلق بابك في وجه محتاج أبدًا...

أجاب «حمدان» وهو سعيد بما حباه به أبوه من ميراث قيِّم ومال وفير:

- حسنًا يا أبي، كن مطمئنًا قريرَ العين، سأعمل بوصيتك ولن أخذلك أبدًا، وستكون المزرعة وما فيها من زروع ودواب تحت رعايتي، ولن أضيِّعَ حق أجير أبدًا، ولن أُغلقَ بابي في وجه محتاج.

أكمل الطَّحَّان:

- وأنت يا «رشدان»...

رشدان مقاطعًا:

- أبي لا عليك، لا أريد شيئًا سوى صحتك، فقط ارتاح الآن يبدو عليك

الإعيـاء الشـديد.

الطَّحَّان مقاطعًا:

- أي بنـي لا تقاطعنـي واسـمعني، نصيبـك في تركتـي هذا البيـت وهذا القط، ربمـا تـرى أن نصيبـكَ أقـلُّ بكثـير من نصيب أخوتـك، ولكن سـتعلم في الوقت المناسـب أني حَبَيتُـك بأفضـل جـزءٍ في تركتـي، وأنت مَـنْ حُرِمت حنـان الأم في مهـدك، ولَـم يمهلنـي العمـر لأَطمـئِنُّ عليك حين يشـتد عودك وتكـبر. المهم أن تعـيَ قيمـة مـا تركـت لـك، وألَّا تضيعـه، وأن ترحم الفقـير وتعدل بـين الناس ولا تنـصر أحـدًا بمـال ومنصـب، وإنمـا بكـون رؤيتـك للحـق وحكمـك العدل، واسـتشر أهـل الحكمـة، اجعلهـم أقـرب النـاس لـك، وإيَّـاك وأهـل النفـاق والضـلال، اصرفهـم عنـك فهم تجـري ألسـنتهم بمعسـول كلام، وتملُّـق ومديح بمـا فيـك ومـا ليـس فيـك، وقلوبهم تمتلـئ حقدًا وطمعًـا. ليكن مبـدؤك الحق والعـدل، وسـيفك القـوة والعدل ونـصرة المظلوم، ولا يبيت جائـع وأنت قرير العين ممتلـئ البطن مرتاح.

«سمعان» وهو يسمع في ذهول:

- أبي الحبيـب، تحدثنـي وكأني سـأكون صاحـب ملـك وسـلطان أو منصـب وجاه...أعـدك أن أُنَفِّـذَ وصيتـك في قـدر مـا يـُمكِّنُني اللـه فيـه مـن مُلْكِـه ... والآن نَـمْ قريـر العين يـا أبي.

أبي .. أبي ... أبي...

لم يُجـب الأب؛ لأنـه قـد فـارق الحيـاة، وحولـه أبنائـه الثلاثـة يحتضنونـه ويبكـون....

بعد نحو شهر من وفاة والدهم أفاق الأخوة الثلاثة من صدمة فقدان أبيهم، واجتمع الثلاثة؛ الأكبر سمعان والأوسط حمدان والأصغر رشدان في بيت أبيهم الذي صار من نصيب ابنه الأصغر رشدان.

سمعان:

- أخي رشدان نظن أن أبانا ربما بخس من حقك عن دون قصد بسبب مرضه، حتى إنه كان يحدثك وكأنك ملك من الملوك فإذا أذنت لنا بإعادة توزيع التركة علينا جميعًا حتى ترضى يا أخي.

حمدان:

- وأنا أوافقك الرأي يا سمعان، رغم أني قد نالني النصيب الأوفر من التركة، لكن لا أرضى أن أقبل بأخذ حق أخوتي.

رشدان:

- أخواي الحبيبين، لا عليكما بارك الله لكما في مالكما، لن أقبلَ أن أغيِّرَ أبدًا من وصية أبي حتى وإن كان هذيان ما قبل الموت كما تذكرون، وبما أنَّه أوصى بذلك فلسوف أذعن لوصيته كاملة، وأنصحكم أنتم أيضًا أن تطبقوا ما أوصاكم به أبوكم من تركة ووصايا توزن بماء الذهب.

رشدان:

- حسنًا أخي، ولكن رجاءً إذا احتجت لأي شيء لا تتردَّد في طلبه من أخويك.

أنا سأسكن في الدار الملحقة بالطاحونة، و«حمدان» سيكن بالدار الملحقة بالمزرعة بعد أن نجددها، وأنت إذا احتجت لتجديد دار أبيك أيضًا يمكننا المساعدة في ذلك.

رشدان:

- لا يـا أخـي، بـل سأسـكن فيهـا كما هي، فلا أثقـل عليكما بـأي مصاريف غير ضروريـة، وأحتفـظ برائحة أبي في الـدار على حالها.

احتضـن «سـمعان» و«حمـدان» أخاهـم الأصغـر «رشـدان» ومضيـا إلى حـال سبيلهما...

جلـس «رشـدان» يفكـر في كلام أبيـه حـين كان يوصيـه وكأنـه سـيصبح ملـكًا، وجلـس ينظـر إلى القـط وهـو حزيـن شـاعرًا بالعجز متسـائلًا في قرارة نفسـه:

- أعلـم أن أبي عـادل، ولا يظلـم الغريـب، ولا أظنـه يظلـم أبنـاءه ولا أظنـه أبـدًا كان يهـذي هذيـان مـرض المـوت كـما ذكر أخـواي، ولكن أخـويَّ نالا من التركـة مـا يُهيِّـئ لهـما أسـباب العيش الآمـن والحيـاة الكريمة، وأسـأل الله أن يبـارك لهـما في مالهـما، أمَّـا أنـا فـلا صنعـة لـديَّ، ولا عمـل أقتات منـه. ونظر إلى القـط: ومـا الـذي سـيُقدمه لي هـذا القـط المسـكين؟ حتـى إني لا أسـتطيع الاعتناء به.

وفجأة سمع صوتًا!!

الصوت:

- سـيدي، إن فكرتـك عنـي خاطئـة، وأنا أسـتطيع أن أسـاعدك فوق مـا يصوِّرَ لـك عقلك.

رشدان فزعًا:

- م م ممن يتكلم هنا! صوت مَنْ هذا؟

لا يوجد أحد هنا غيري أنا والقط

القط:

- أنا مَنْ يتكلم يا سيدي.

رشدان:

- ق ق ق قط يتكلمممم، كيف هذا؟

القط:

- نعم يا سيدي، أتكلم وأنا سوف أساعدك، فقط اعتبرني صوت عقلك الذي سيرشدك ويوجهك.

رشدان بعد أن ذهب عنه الرَّوع نوعًا ما:

- وكيف ستساعدني أيها القط؟

القط:

- ستعرف ذلك في وقته، فقط أحضر لي قبعةً وحذاءً وسلَّةً من القش لها غطاء أستعمله كمصيدة، أعرف أنَّ الجوعَ قد بلغ منك مبلغًا.

رشدان:

- حسنًا أيها القط، سأحضر لك ما طلبت، وسوف نرى ما يمكنك القيام به.

أحضر «رشدان» بعض الجلود من مخزن الجلود، وصنع قبعةً وحذاءً للقط، وأعطاه سلة القش التي طلبها وذهب معه إلى الغابة. وضع القط بعضًا من الخسِّ في السلة، وربط غطاء السلة بخيط بعد أن جعله يمرُّ على أحد الأغصان بحيث يمكنه غلق الغطاء إذا ترك الخيط، وبهذا صنع مصيدةَ أرانب مُتقنة، وبعد بُرهة أتى أحد الأرانب ليأكل الخسَّ من السلة، وفِي بُرهة ترك القط الخيط ليغلق غطاء السلة على الأرنب، وبهذا أصبح

لديهم صيد ثمين. قام «رشدان» بتنظيف وشوي الأرنب على الفور بعد أن بلغ منه الجوع مبلغًا، أكل هو والقط حتى شبعا، وفِي اليوم التالي كرَّر القطُّ نفس الخطة باصطياد أرنب آخر، وقرَّر هذه المرة إهداءه للملك، وفِي طريقه إلى ديوان الملك استوقفه الحرَّاس، وما إن تكلَّم القط حتى تعجَّب الحُرَّاس من ذلك، وسمحوا له على الفور بملاقاة الملك الذي بدوره تعجَّب كثيرًا من رؤيته قطًّا يتكلم.

القط:

- السلام عليكم يا سيدي.

الملك:

- وعليكم السلام ... قطٌّ يتكلم! هذا أمر عجيب جدًّا.. يتكلم ويرتدي قبعةً وحذاءً، أيُّ معجزةٍ هذه!! وماذا بك أيها القط؟ فيمَ أتيت لملاقاتنا؟

القط:

- أنا مملوك لشاب في مدينتكم يا مولاي، هو شاب طيب، ولكنه فقير، وكان والده طحَّانًا يملك طاحونة ومزرعة، ترك لولديه الكبيرين الطاحونة والمزرعة، وتركني لابنه الصغير ميراثًا، وكل ما أطلبه من سيادتكم هو قبول هذه الهدية البسيطة مني نيابة عن سيدي الشاب «رشدان».

كان الملك يسمع كلام القط في ذهول شديد، وتعجَّب من أمر الطَّحَّان الذي ـــ في نظره ـــ لم يعدل في تقسيم تركته بين أبنائه، وينعم ولداه الكبيران بالمزرعة والطاحونة، ولم يترك شيئا لابنه الأصغر إلا هذا القط المتكلم.

الملك:

- حسنًا أيها القط، قبلنا هديتك وهدية سيدك، وأبلغ سلامي لسيدك الشاب الطيب.

مضى القط فَرِحًا، واصطاد أرنبًا آخر ليأكله مع سيده، وأخبره ما كان بينه وبين الملك. تعجَّب «رشدان» من أمر القط، ولَم يفسر سببَ ذهابه إلى الملك، وإهدائه أرنبًا له؛ لأن الملوك تَهدي بالذهب والياقوت والمرجان والثروات العظيمة، أمَّا مجرَّد أرنب فهذه هدية متواضعة جدًّا لا تليق أبدًا بملك.

في قصر الملك، لم يغب لحظة أمر القط المتكلم وحكاية الشاب الفقير عن تفكير الملك؛ الذي كان له زوجة وابنه وحيدة ولَم تتزوج بعد؛ لرفضها جميع الأمراء الذين تقدموا لها؛ لأنها غير مقتنعة بهم جميعًا...

الملك:

- أَسمعتِ بأمر القط المتكلم ذي القبعة والحذاء أيتها الملكة؟

الملكة:

- نعم يا سيدي، سمعت عنه كثيرًا، تحدَّث عنه الحرملك جميعًا، والنَّاس في الأسواق وعلمت أنه أتى اليوم لملاقاتكم.

الملك ضاحكًا:

- نعم يا زوجتي الحبيبة، وقد قدَّم لي أرنبًا هديةً، يا لها من هدية متواضعة! ولكن لها قيمة عندي، وقد أمرتُ الخدمَ الاعتناء بهذا الأرنب لعلَّه يتكلم هو الآخر هههه.

الملكة مبتسمة:

- تُرى ما قصة هذا القط؟ وما قصة الشاب الذي يملكه؟

حكى الملك للملكة قصة الشاب الفقير الطيب، وقصة التَّرِكَة التي لم يوزعها والده عليهم بالتساوي،كل هذا والأميرة «دولشان» ابنة الملك تستمع بشغف واهتمام شديد لقصة القط المتكلم وصاحبه الشاب الفقير «رشدان».

وفِي بيت رشدان ...

رشدان:

- والآن أيها القط ماذا بعد؟ أريد عملًا، لا أعرف غير العمل في الطاحونة التي أورثها أبي لأخي الأكبر، وأنا لن أقبل أبدًا أن أتسوَّلَ الرزقَ من أخي أو من غيره، ولن أقبل أن أعملَ أجيرًا عند أخي بعد أن كنت من مُلَّاك الطاحونة، ولن أُشْمِتَ بي أحدًا من العاملين أو الجيران، كل ما أريده عملًا حلالًا يحفظ لي كرامتي وماء وجهي.

وأكمل مبتسمًا:

- لن أستطيع الاعتماد فقط على جهدك في صيد الأرانب لجلب قوتي، أنا لم أعتدْ أبدًا على الكسل والجلوس في المنزل بلا قيمة، فكِّر معي يا صديقي في أيِّ عمل يناسبني.

القط:

- سيدي لا تقلق، رزقك قادم بإذن الله لا محالة، الأمر يحتاج منك إلى مزيد من الصبر، اصبر يا سيدي وسيرضيك الله بإذنه برزق يعجب منه

أصحاب الحِيل، وتقرُّ به عيناك فوق ما تحلم.

رشدان:

- أتمنى ذلك يا صديقي القط الطيب، ولكن تعلَّمت الأخذ بالأسباب وعدم التواكل، لكن حسنًا سأصبر يا صديقي، والآن هيَّا بنا إلى أرنبك اللذيذ، هيَّا نتناول الطعام.

في اليوم التالي مضى «رشدان» وصديقه القط ذو القبعة والحذاء إلى الغابة، باحثًا عن صيد أو رزق حلال، وفِي طريقهم سمعوا بأمر مرور موكب الملك ليتفقد الرعية، وما إن سمع القط ذلك حتى هرع إلى موكب الملك لملاقاته؛ لعلَّ الملك يرى «رشدان» وينعم عليه بعمل مناسب في قصره، وما إن رأى الملك القط ذا القبعة والحذاء مقبلًا من بعيد حتى أوقف الرَّكب...

الملك مبتسمًا:

- مرحبًا أيها القط المتكلم ذو الحذاء، أين أنت؟ ولماذا لم تزُرْنا بعد آخر مرة، ما كل هذه الغيبة؟

القط:

- لم أشأ إزعاجكم يا سيدي، وإني أتشرَّف دائمًا بملاقاتكم.

الملك:

- حسنًا، وما الذي أتى بك هنا إلى الغابة وأين سيدك؟

القط:

- أتيت بصحبة سيدي يا مولاي، باحثين عن صيد أو رزق من رزق الله الطيب.

الملك:

- وأين سيدك؟ أريد ملاقاته.

القط:

- في الحال يا مولاي.

ذهب القط مسرعًا إلى رشدان

القط:

- سيدي، هَلُمَّ يا سيدي، الملك يطلب ملاقاتك.

رشدان مرتبكًا:

- ملاقاتي! كيف ولماذا؟ وهل أقابله وأنا بهذه الحالة وهذه الملابس الرَّثّة؟

القط:

- نعم يا سيدي، الصدق والشفافية هي أقرب الطرق للوصول إلى قلوب الناس، هلَّا تبعتني إلى الملك، لا نريد أن نضيِّعَ الوقت أكثر من ذلك.

تحرَّك رشدان بملابسه الرَّثّة على الفور باتجاه موكب الملك لملاقاته كما طلب، وعند وصوله في وسط الزحام حول الملك..

رشدان:

- السلام عليكم يا مولاي، أنا «رشدان» بلغني من القط أنكم طلبتم ملاقاتي.

الملك وهو ينظر بتعجب لرشدان:

- أهلًا بك أيها الشاب الطيب، يا حرَّاس خذوا «رشدان» أكرموه وأعطوه

ملابـس جيـدة، وليـأتي صباح الغـد لملاقـاتي في الديوان.

الحرَّاس:

- أمرك مولاي.

وفي صبـاح اليـوم التـالي، أتى «رشـدان» إلى ديـوان الملـك وهو في أبهـى صورة، وأضفـتْ وسـامته عـلى الملابـس الجديـدة بهـاءً فـوق الوصـف، أقبـل عـلى ديـوان الملـك مصطحبًا القـط ذا الحذاء، وكان الملك يجلـس على كرسي العرش وبجـواره زوجتـه وابنتـه، ومـا إن رأتـه ابنـة الملـك حتـى أُعْجِبَـت بـه للوهلة الأولى؛ فقـد ارتبطـت الصـورة التي رسـمتها لـه في خيالها عـلى هيئته وصورته الحقيقيـة، بعـد أن سـمعت عنـه وأُعجِبَـت بنبلـه وقناعته وعزَّة نفسـه.

الملك:

- أهلًا بك يا «رشدان»، ما قصتك يا ولدي وما قصة القط المتكلم؟

رشدان:

- أمَّـا قصتـي يـا مـولاى فهـي كـما علمتم مـن شـأن أبي الطَّحَّان (وذكـر قصته كاملة).

وأمَّـا بشـأن القـط فـلا أعلم عنـه شـيئًا، إلَّا أن أبي أحضره لنـا في ذات يوم بعد وفـاة أمـي وأنـا طفـل صغير ليسـليني، وبعـد وفاته أورثنـي إيَّـاه، وبعد وفاة والـدي فوجئـت بـه يتكلـم ويؤنسـني كما ترى يا سـيدي، وهـو لم يكن يتكلم مـن قبـل وفـاة والـدي، ولَـم آخـذ لنظـير ذلـك شـيئًا مـن التَّرِكـة غـير البيـت الـذي يسـترني، وأنـا الآن أبحث عـن عمل حلال.

الملك:

- قصتك عجيبة يا «رشدان»، وما منعك أن ترضى بعرض أخوتك، وتقسِّم التركة بالعدل بينكم، وقد سُلِبت جُلُّهَا.

رشدان:

- ما كان لي يا مولاي أن أخالف وصية أبي حتى لو كانت هذيانَ ما قبل الموت؛ لأنه لم يربيني أبدًا على خيانة العهد، وكان الأشرف لي أن أموتَ فقيرًا حافظًا للعهد، ومُطبقًا لوصية والدي، على أن أعيش غنيًّا خائنًا للعهد.

الملك وهو يسمع بإعجاب وذهول، وقد أُعْجِب بنبل وأمانة الشاب الفقير:

- ولكن أخبرني ما هي مهاراتك؟ والعمل الذي يمكنك القيام به؟

رشدان:

- تعلَّمت من أبي إدارة الطاحونة والزراعة والمحاسبة، وقد كنت أقرب أبنائه له، وعلَّمني الكثير من حكمته، ورجاحة عقله يا مولاي، وقد كنت أقرب أخوتي له.

الملك:

- نعم سمعت عن حكمة وفضل أبيك، ووقوفه بشرف في جانب الفقراء في أكثر من موقف عندما طلبت الاستقصاء عن أمرك، وإني لحزين؛ لأن القدر لم يحالفني لملاقاة مثل هذا الرجل قبل وفاته، ولكني أشعر أنك أقرب أبنائه له صفةً وطِبَاعًا ومروءةً، ولعل الوقت قد آن لردِّ جميلِهِ فيك.

وأكمل الملك:

- والآن أيها الشاب الوفي الأمين، اذهب وتسلَّم عملك.

رشدان مشدوهًا ومتعجبًا:

- عملي! أيُّ عملٍ تقصد يا مولاي الملك؟

الملك:

- عملك في الديوان الملكي مُشْرِفًا على ديوان الزراعة والضرائب والمحاسبة، لن أجد مَنْ هو أكثر أمانةً منك لتولِّي هذه المناصب الحسَّاسة في المملكة.

رشدان:

- ولكن هذا كثير، هذا كرم كبير منك يا مولاي.

الملك:

- أنا أنتظر منك الكثير يا بني، هيَّا ابدأ عملك من اللحظة.

كل هذا والأميرة تتابع الحوار بشغف واهتمام شديدين، وقد أُعْجِبَت بشدة بشخصية وأمانة «رشدان» الذي لم يرفع عينيه نحوها أدبًا وخجلًا طيلة حديثه مع الملك، وقد أبدت إعجابها الشديد بأخلاق وصفاته لوالدها الملك، والذي بدوره لاحظ مدى إعجاب ابنته برشدان.

في المساء في قصر الملك...

الملك جالسًا مع زوجته وابنته:

- اليوم كان طويلًا جدًّا، ولكني سررت بمقابلة هذا الشاب الذي ـــ بالرغم فقره وحاجته ـــ يتحلَّى بصفات النبل والمروءة والإباء وعزة النفس، ولعل

أمور الإدارة في المملكة ستنصلح على يديه.

الملكة:

- نعم يا مولاي، ولكن ألا ترى أن تولية كل هذه المناصب لشاب ليس لديه خبرة هو أمر خطير، وأنت لم تتعامل معه بعد لتعرف قدراته وأمانته، فكل ما نعرفه عنه فقط ما سمعناه.

الملك:

- كلامك منطقيٌّ جدًّا يا مليكتي الحبيبة، وبالفعل أنا أعطيته كل هذه المناصب لأختبره، ولأعرف مدى أمانته وقدرته، ولَم يكن لي أبدًا أن أجازفَ بمستقبل ومُقدِّرات مملكتنا، فإن نجحَ في الاختبار علا شأنه وزاد قربه، أمَّا إذا فشل في اختيارنا له فسيعود من حيث أتى خاليَ الوِفَاض، وقد كلَّفت العديد من العاملين في إدارة المملكة بمتابعة نشاطه عن كَثَبٍ، وإعطائي تقارير لحظية بأدائه ونشاطه، والأمر برُمَّته يعتمد على النتائج الملموسة التي سوف يحققها على أرض الواقع.

الملكة:

- نِعْمَ الرأي يا مولاي.

الملك:

- أميرتي الحبيبة «دولشان» ما لي أراكِ مُصْغية سارحة غير مشاركة في الحوار؟

الأميرة:

- نعم أبي، أتحدثني؟

الملك مبتسمًا:

- نعم حبيبتي، أتمنى أن يكون مَنْ أخذ عقلَكِ يستحقه.

الأميرة في خجل:

- لا يا أبي، ولكن شغلني أمر هذا الشاب الذي رأيت في أخلاقه، وحسن بيانه وحكمته ما لم أَرَه في الأمراء، ولكن كما ذكرت دعنا لا نتعجَّل في الحكم عليه، بَيْدَ أنَّ قصتَهُ وخلقَهُ تدعو إلى العجب، هيئته وفصاحته وقطه المتكلم ذي القبعة والحذاء هههه.

الملك:

- هههه، نعم حبيبتي أمره عجيب هذا الشاب، ولعلَّ أمورًا كثيرة ستنحل على يديه، لنرى ما سيحدث مستقبلًا.

في ذات المساء في بيت الشاب «رشدان»...

جلس «رشدان» مع القط وهو مشدوهًا متعجبًا لما حدث خلال اليوم، وكأنه لا يصدق؛ فهو بين يوم وليلة قد أصبح من كبار رجالات الدولة بعد أن كان فقيرًا محتاجًا ..

رشدان:

- والآن يا صديقي، دبِّرْني ماذا سأفعل؟ المسئولية كبيرة والحمل ثقيل، ولا أظن الملك قد أعطاني هذا المنصب مكافئةً أو رفاهيةً، وإنما ليختبر مدى قدرتي وأمانتي وأدائي، ولَم أعتدْ أبدًا على الفشل في أي شيء كما رباني أبي، لكني الآن أخاف من الفشل أكثر من أي وقت مضي، ولا أظن أن الملك سيُبْقِي عليَّ إذا لم أحقق هدفه في الوصول لما ينتظره مني، وأعرف أنه

ينتظـر مني الكثير.

القط مجيبًا:

- يـا صديقـي لا تقلـق، سـأكون بجانبـك مُرْشِـدًا وناصحًـا، ويمكنـك أن تعتبرني صوتَ ضميرك.

وأكمل القط:

- إن الحيـاة تحتـاج الجـرأة ومواجهـة التحديـات وروح المغامـرة مـع الأخـذ بالأسـباب، وهـذا هـو الأهـم يـا صديقـي، بقـدر مـا لديك مـن مغامـرة بقدر مـا يجـب أن تأخـذ بأسـباب النجـاح للوصـول لهدفك.

رشدان:

- كلامك طيب يُريح القلب يا صديقي القط.

وبعـد حـوار طويـل ذهـب «رشـدان» والقـط في نـوم عميق اسـتعدادًا لمـا ينتظرهـمُا غـدًا في قـصر الملـك. وفِي صبـاح اليـوم التـالي ذهـب «رشـدان» في صحبـة قطـه المتكلـم ذي الحـذاء إلى الديـوان الملـكي لمبـاشرة مَهـامّ منصبـه الجديـد.

رشدان:

- السلام عليكم سيدي الحاجب.

الحاجب:

- السـلام عليكـم يـا ولـدي، اليـوم أول أيام عملـك والملك يعوِّل عليـك الكثير، والآن سـأقوم بتسـليمك دفاتر ديـوان المالية وديوان الزراعـة لتبدأ بمراجعتها، ولكـن كـما تعلـم نحـن مقبلـون عـلى موسـم الحصـاد، وسنتسـعد لمراجعـة

المحاصيل لمساعدة المزارعين في تسويقها، نظير نسبة ضئيلة من جملة المحصول للدولة نتيجة الخدمات والدعم الذي نقدمه لهم.

وأكمل الحاجب، وقد دخل مع رشدان حجرةً بها عشرة رجال:

- وهؤلاء يا ولدي جميعًا في خدمتك وتحت إدارتك، ولهم من الخبرة ما يكفي لمساعدتك، وإذا احتجت لأي استفسار عليك بالرجوع لي في أي وقت حتى تعلم بكل ما تم إسناده لك من مهام، وتحظى بالدعم المطلوب لكي تحصل على أحسن النتائج، ونحن نعوِّل عليك الكثير؛ لأن ديوان الزراعة والمالية من أخطر وأهم دواوين الدولة وأكثرها مشاكل.

رشدان وهو يسمع كل كلمة بإنصات وحرص شديدين:

- نعم يا سيدي الحاجب، أعي قدر المسئولية المُلقاة على عاتقي، وأدعو الله أن أؤديها على أتم وجه، آخذًا بكل أسباب النجاح.

الحاجب:

- سِلَم لسانك يا ولدي، نعم الاعتماد على الله أولًا، مع الأخذ بأسباب النجاح هو السرّ والسبيل الوحيد للوصول لهدفك. والآن أتركك لتبدأ مهام عملك؛ فالحمل ثقيل، والطريق طويل، والوقت قليل، وليكن هدفك الأول هو أن تنتصر عليه «الوقت» يا ولدي.

مضى «رشدان» إلى غرفة السِّجلَّات، وقد تعلَّم من أبيه سابقًا قبل أن يبدأ صفحة جديدة في حياته عليه مراجعة ما مضى من أخطاء أو نجاحات؛ ليتعلَّم من خبرة من سبقوه، ويصلِح ما فشلوا في أدائه على النحو المطلوب؛ ليبدأ صفحة جديدة، ولكن على أسس سليمة.

القط:

- سيدي، تبدأ بمراجعة الوارد قبل الصادر، وتأكد من أن ضريبة المحاصيل يتم جمعها من الكل على حدٍّ سواء دون استثناء.

رشدان:

- أحسنت قولًا يا صديقي، وهذا ما أُخطِّط لفعله أولًا.

وبدأ «رشدان» في مراجعة السجلات، ولاحظ شيئًا عجيبًا أن هناك عددًا كبيرًا من الأسماء المدوَّنة بالسجلات لم يتم تجميع أي ضرائب منهم على مدى السنين الماضية، برغم أنهم ينالون خدمة ودعم المملكة مثلهم مثل باقي المزارعين، وبدأ في تدوين كل حاصلاتهم الزراعية جميعًا، وحساب حق المملكة فيما حصلوا عليه ودوَّنها في سجل منفصل، وكان الليل قد أقبل وهو مستمر في المراجعة، ثم دخل عليه الحاجب..

الحاجب:

- يا ولدي، لقد تأخر الليل، وأرى الإرهاق في عينيك من فرط المراجعة والعمل المتواصل طوال اليوم.

رشدان:

- لا عليك يا سيدي، فيجب عليّ بذل الكثير من الجهد في الفترة الأولى من عملي؛ لفهم متطلبات عملي جيدًا ومراجعة كل السجلات السابقة، وستأتي الراحة لاحقًا بعد العناء بإذن الله.

الحاجب:

- حسنًا يا ولدي، استمر ولكن لا تجعل ذلك يأخذ من رصيد صحتك

وطاقتك، أراك صباحًا إن شاء الله.

استمرَّ «رشدان» على هذه الحال، يعمل كثيرًا وينام قليلًا حتى أحصى كل سجلات الواردات، ودوَّن حق المملكة المهضوم من العديد من المزارعين الذين لم يسدِّدُوا حق المملكة نظير خدمتها لهم، وقد لاحظ شيئًا غريبًا وهو أن أغلبهم من الأعيان أصحاب الممتلكات التي لا حصر لها، وهم ليسوا بحاجة للهروب من دفع حق المملكة، لا سيَّما أنهم أول مَنْ تعتني المملكة بهم وتساعدهم في زراعة محاصيلهم على أفضل وجه، وتساعدهم على تسويقها داخل وخارج المملكة بالشكل الذي يضمن لهم أفضل ربح.

وبعد أسبوعين من الجهد المتواصل بعد الانتهاء من سجل الواردات، قرَّر «رشدان» أن يراجع سجل المصروفات الذي لم يكن بأفضل حالٍ من سجل الواردات بل كان أسوأ، فقد وجد الكثير من المصروفات ليس لها أي توصيف مدوَّن أمامها، والكثير منها مبالغ فيها أضعافًا مضاعفة، كأن يشتري أحدهم ــ مثلًا ــ شيئًا من منافع القصر ثمنه قطعة ذهبية واحدة، وتدوَّن على أنها ألف قطعة.

استمر«رشدان» في العمل لأسبوعين آخرين ليل نهار؛ لحصر كل المخالفات الموجودة في سجل المصروفات، ودوَّنه أيضًا في سجل منفصل.

كل هذا قد سبَّبَ قلقًا شديدًا على العاملين في هذه السجلات، وهم للأسف مَنْ كان قد كلَّفهم الملك بإعداد التقارير عن أداء رشدان، وقد أتت التقارير مغايرة للحقيقة لإقصائه؛ لأنه سيسبِّب خطرًا محدقًا على كل موظفي القصر، ولَم يكن في صف «رشدان» إلا الحاجب الطيب

العجوز المغلوب على أمره.

راجع الملك التقارير المكتوبة في حق «رشدان» ببالغ الأسى وكأنه خذله؛ لأن التقارير تذكر بوضوح أنه كسول بطيء الفهم، لا يعمل ولا يفهم السجلات، ولا كيف يتم تدوين الصادر والوارد فيها، وليس لديه أي مقومات لهذا المنصب، لكن الملك كعادته كان حكيمًا ولَم يتسرع في أخذ قراره بعزل «رشدان» بعد أن أثبتت التقارير جميعها فشله الذريع بما لا يدع مجالًا للشك.

وفِي المساء في قصر الملك ....

الملكة:

- سيدي وزوجي الحبيب، مالي أراكَ مهمومًا على غير عادتك اليوم.

الملك:

- لا عليكِ مليكتي الحبيبة، إنها أمور الحكم ومشاكله التي لا تنتهي.

الملكة:

- ومتى كانت أمور المُلك تؤثِّر على زوجي ومليكي الحبيب، أنا أُوقنُ أنه أمرٌ جَلل يشغلك، افتح قلبك لي.

الملك:

- نعم حبيبتي، في الحقيقة أنا اليوم مهموم كما لم أكن من قبل، أتذكرين الشاب «رشدان» صاحب القط المتكلم ذا القبعة والحذاء.

الملكة:

- نعم يا سيدي، من وليته ديوان الزراعة والمالية، كيف صار حاله وأداؤه

في إدارة شئون المملكة؟

الملك:

- للأسف ليس على ما يرام، قد خذلني، وكل التقارير تشير إلى عدم كفاءته لهذا المنصب.

الأميرة وقد كانت تستمع لحديث أبيها بإنصات، ردَّت في حزن ملحوظ:

- أبي، كيف ذلك؟! أظن أن هناك خطأً ما، لا أظن شابًّا بهذه الفصاحة والذكاء والأمانة يفشل في ما أوكلْتُه إليه من منصب، لعلَّ في الأمر سرًّا ما.

الملكة:

- سيدي الملك، كما تذكر أنا مَن طلبتُ منك أن تتريَّثَ قبل أن توليه هذه المناصب، وأنا الآن مَنْ أنصحُك أن تتريَّثَ قبل عزله أو عقابه، لعلَّ في الأمر حيلةً كما ذكرت الأميرة.

الملك:

- ابنتي الحبيبة وزوجتي لا عليكما بأمور الحكم، لا تشغلا بالكما، إنما ذكرت الأمر لأفضفض معكما لا أكثر.

ذكر الملك ذلك لزوجته وابنته، وكان قد عزم على عزل «رشدان» بعد شهر من توليه منصبه، حتى يحفظ ماء وجهه بعد أن خذله كما ذكرت التقارير المُفبركة الظالمة على غير الحقيقة. ومما زاد شكوك الملك في قدرات «رشدان» هو عدم محاولته طلب مقابلة الملك طوال هذه الفترة.

بعد حديث الملك ظهر الحزن على الأميرة التي لم تكد أن تُخفِيَ دموعها بعد أن أيقنت أن «رشدان» معزول ومطرود من القصر لا محالة.

وفِي الصباح كان «رشدان» قد جمع كل السجلات والملفات التي عكف على كتابتها ومراجعتها، وقد عزم أمره على ملاقاة الملك بشكل مباشر؛ ليعرض عليه بالتفصيل كل السرقات والتقصير الذي حدث على مدى أعوام طويلة سابقة، وكان قد حصر ما جُملته تزيد عن مئتي مليون قطعة ذهبية، منهوبة من أموال الدولة في الواردات، وضعفها في المصروفات، وقد تحدَّث بالتفاصيل إلى الحاجب الذي كان يثق فيه تمامًا.

رشدان:

- السلام عليكم أيها الحاجب الطيب، يا مَنْ تُذكِّرُنِي بأبي رحمه الله.

الحاجب:

- وعليك السلام يا ولدي، يشرفني مقارنتك لي بأبيك الطيب، ذي السيرة الحسنة، عليه رحمة الله، أخبرني كيف حالك في منصبك وإدارته؟ أراك مجهدًا وكأنك لم تنمْ لشهر كامل.

رشدان:

- نعم يا سيدي، عملت بجدٍّ قدر استطاعتي على مدى شهر كامل، ولَم أشأ لقاء الملك إلا بعد أن أجمع كل المعلومات عن سرقات وتقصر شديد في إدارة ديواني الزراعة والمالية، والآن لدي كل السجلات والإثباتات لملاقاة الملك اليوم.

الحاجب:

- حسنًا يا ولدي، سأحدِّد لك موعدًا اليوم مع الملك، وأدعو الله أن يكون جهدك الطيب سببًا في رجوع الحق لمملكتنا المنهوبة على مدى السنين.

في ديوان الملك ...

الحاجب:

- السلام عليكم يا سيدي.

الملك:

- وعليكم السلام أيها الحاجب، كنت سأبعث في طلبك، فقد عزمت اليوم على قرار مهم في شأن دواوين المملكة.

الحاجب:

- أمرك يا مولاي.

الملك:

- أمرنا بعزل «رشدان» من منصبه لما بلغنا من ضعف خبرته، وتقصيره في إدارة شئون دواوين خطرة في مملكتنا، كنت أعوِّل عليه الكثير، ولكن يبدو أنني تسرَّعت في حكمي عليه.

الحاجب:

- سيدي لعلَّ في الأمر خطأً ما، فأنا أتابعه عن كثب طوال شهر كامل، ولا أتركه إلا وهو يعمل ليغادر بعدي بكثير، وحين أحضر في الصباح الباكر أجده قد أتى قبلي، بل وقبل كل العاملين بالقصر.

الملك:

- لا عليك أيها الحاجب، طيبتك هي نقطة ضعفك، قد أخذتُ قراري بشأن هذا الشاب وحُسِمَ الأمر.

الحاجب:

ولكن سيدي...

الملك مقاطعًا في حِدَّة:

- انتهى الأمر أيُّها الحاجب، وعليك أن ترشِّحَ لي اليوم عددًا من الوجهاء أصحاب الخبرة والحِنْكَة؛ لتولي منصب رئيس ديوان المالية، وآخر لتولي منصب رئيس ديوان الزراعة، فلن أجمع مجددًا بين الديوانين.

الحاجب:

- أمرك مولاي، طلب أخير.. طلب مني «رشدان» اليوم ملاقاتك لأمر بالغ الخطورة، ونصيحتي أن تقابلَهُ يا مولاي حتى وإن كان قرار عزله قد حُسِم.

الملك:

- حسنًا، لا بأس، فليأتِ بعد اجتماعي الصباحي بسفراء الممالك المجاورة.

الحاجب:

- حسنًا، بعد إذنك يا مولاي.

وكان بعض المتلصصين في القصر قد سمعوا الحوار الذي دار بين الملك والحاجب، وأدركوا مدى الخطر المحدق بهم إذا قابل «رشدان» الملك، وأجمعوا أمرهم وقرَّروا قتله أثناء لقاء الوزير بالسفراء قبل موعد لقائه مع الملك.

وفِي ديوان المالية كان «رشدان» يجلس في ترقُّب شديد للقاء الملك، ومعه قطه الذي شعر بأنَّ مكيدةً ما تُدبر لصديقه «رشدان» بعد أن سمعَ المتآمرين بأُذَنِه دون أن يُعيرُونَ انتباهًا لوجود قط بينهم.

القط:

- سيدي رشدان هل تثق بي؟

رشدان:

- نعم، بكل تأكيد أثق بك يا صديقي.

القط: حسنًا، اجمع دفاترك، واتبعني فورًا.

تبع رشدان القط إلى مخزن في سرداب القصر

رشدان متوجسًا خيفة:

- ماذا هنالك يا صديقي؟

القط:

- لا تقلق ستكون بأمان هنا إلى أن يحين موعد لقاء الملك بعد ساعة، ثِق بي يا صديقي ولا تقلق،ركن كنْ حَذِرًا.

رشدان:

- حذرًا؟! مِنْ ماذا؟ أخبرني ماذا تعرف؟

القط:

- قلت لك لا عليك، فقط الآن ركِّز في لقاء الملك، ابقَ هنا وسأعود لك بعد قليل.

بحث المتآمرون عن «رشدان» في كل أرجاء القصر، دون أن يجدوه وكأن الأرض قد ابتلعته، وفِي مكتب الحاجب...

القط:

- السلام عليكم أيها الحاجب الطيب.

الحاجب مبتسمًا:

- مرحبًا بصديقنا القط المتكلم.

القط في جِدّيَّة:

- سيدي الحاجب إن حياةَ سيدي «رشدان» في خطر مُحدق، وقد تآمر المتآمرون على قتله بعد أن تيقَّنوا من أنه سيفضح أمرهم عند الملك.

الحاجب وقد هبَّ واقفًا في تحفز: كنت متوقعًا ذلك، يدُ الشرِّ الخسيسة لا تقف عند أيِّ حدٍّ من الجريمة، ويسهل عليهم القتل كما كانت السرقة سهلة عليهم، أين هو الآن سيدك «رشدان»؟

القط:

- هو في أمان يا سيدي، في مخزن في سرداب القصر، لا يعرف مكانه أحد، كل ما أريده مجموعة من الجنود لحماية سيدي «رشدان» ريثما يقابل الملك ويفضح أمرهم.

صحب الحاجب القط إلى سرداب القصر حيث كان يتخفَّى «رشدان»، ومعه عشرة جنود أشداء لحماية «رشدان» من بطش المتآمرين.

وفِي مخزن سرداب القصر حيث كان يختبئ «رشدان»

الحاجب:

- ولدي، هل أنت بخير؟

رشدان:

- نعم يا سيدي الحبيب، ما الأمر؟ أنا أختبئ هنا كما طلب مني القط، ولا أعلم سبب ذلك.

الحاجب:

كما توقعت، لقد أجمع الخونة أمرهم ليقتلوك يا ولدي، وقد فعل القط خيراً أن أتى بك إلى هنا حيث لا يجدك الخونة المتآمرون.

وأكمل الحاجب:

- والآن يا ولدي، قد حان موعد لقاء الملك، هيَّا بِنَا في حراسة الجنود.

وهم في طريقهم إلى الملك ...

أحد المتآمرين يتحدث لرفقائه:

- هذا الحاجب العجوز الخرف كان يخبِّئ المتشرِّد «رشدان» حتى لا تطاله أيدينا، ولا أدري كيف عرف بأمرنا.

كبير المتآمرين:

- هذا لا يهم كيف عرف، المهم ألّا يصل بأيِّ حالٍ من الأحوال إلى الملك، وإلا سيُفْتَضَحُ أمرُنا ويقضي علينا، لقد استهنا بقدرات هذا الفتى الصعلوك، وكان يجب أن نقتله من البداية، والعجيب أننا أخفينا عنه الدفاتر، ولكن الحاجب الخَرِف قد حصل عليها وأعطاها له، ولَم نكن ندرك أنه سيفهم شيئًا منها، لقد قلَّلنا من شأن خطورته علينا، والآن ندفع الثمن.

أحد المتآمرين:

- يجب أن نركِّز الآن على خطة لقتله ولو في ديوان الملك، الأمر جلل يا

سادة، لقد نجحنا في إقناع الملك بتقاريرنا المزيفة بأن «رشدان» ليس أهلًا لهذا المنصب، وأظن أنَّ الملك سيأخذ قرارًا بعزله، إن لم يكن قد عزله بالفعل، ولَم يتبقَ لنا أن نُحيلَ دون وصوله للملك بأيٍّ ثمن.

في أثناء ذلك كان «رشدان» والحاجب والجنود على مشارف ديوان الملك، وقد دخل عليه الحاجب

الحاجب:

- سيدي الملك، «رشدان» على باب الديوان بطلب الدخول.

الملك:

- أعطني خمس دقائق، وبعدها فليدخل.

كان الملك قد قرَّر إحضار زوجته وابنته لحضور لقائه الأخير بـ«رشدان» بعد أن قرَّر عزله، لتشهدا عزله كما شهدتا تعيينه في بادئ الأمر، حضرت الملكة والأميرة إلى ديوان الحكم.

وفِي خارج الديوان كان ينتظر «رشدان» الخمس دقائق لتمر وكأنها دهر كامل، لم يكن «رشدان» قلقًا على حياته، لكنه قلق أن يموتَ قبل أن تصل الحقيقة كاملة إلى الملك. كل هذا والمتآمرون يراقبون «رشدان» وسط الحراسة لتحين الفرصة للقضاء عليه قبل ملاقاته للملك، لكن يقظة الحرَّاس حالت دون ذلك، وبعد مرور خمس دقائق طلب الملك من «رشدان» والحاجب الدخول، دخلوا إلى ديوان الملك بدون حراسة، ومعهم القط ذي الحذاء.

عندما شاهد الملك «رشدان» رقَّ قلبه بحزن، وقال في قرارة نفسه:كنت أتمنى أن تنجح في مهمتك يا ولدي؛ لأني كنت أَعُدُّكَ لأكبر من ذلك المنصب، ولكن خذلتني للأسف. نظرت الأميرة إلى الشاب الذي أحبته دون أن تدري، وعيناها لا تكاد تُخفي الدموع التي غرقت فيها، وتمنَّت ألّا يكون هذا اللقاء هو آخر عهدها برشدان. وعلى الجانب الآخر كان يتحيَّن المتآمرون الفرصة لاختلاق أي مشكلة لقتل «رشدان» في ديوان الملك وهو بغير حراسة، وقد حضر بعضهم الديوان لحضور لقاء الملك بـ«رشدان».

رشدان:

- السلام عليكم سيدي الملك عالي القيمة والمقام.

الملك في شدة وحزم:

- وعليكم السلام يا «رشدان»، لِمَ طلبتَ لقاءنا؟ وقد بلغنا ما بلغنا من تقصيرك في عملك، وعدم كفاءتك لأدائه، لقد خذلتني بشدة، وقد كنت أنتظر منك الكثير أيها الشاب، ولكن يبدو أني تسرَّعت، وعلى العموم لا أدري إن كان قد أخبرك الحاجب أني عزلتك.

رشدان في حزن شديد وذهول:

- عزلي! لا لم أعلم شيئًا بعد بشأن عزلي يا سيدي، والأمر لكم في كل الأحوال، لكني قبل مغادرة منصبي أردت أن أُعْلِمَ جنابكم يا مولاي بأمور خطرة حَصَلْتُ عليها خلال هذا الشهر الذي عملته تحت إمارتكم.

كبير المتآمرين مقاطعًا (وقد حاول انتهاز الفرصة لطرد رشدان من ديوان الملك):

- يـا هـذا، ألم يخـبرك الملـك أنـه قـد تم عزلـك، والآن اخـرج من ديـوان الملك بعـد أن خذلتـه وخذلتنا جميعًا.

الملك غاضبًا وموجهًا كلامه إلى المتآمر، وبأعلى صوته:

- ومـن أذن لـك أن تطـرد «رشـدان» مـن ديواني؟ وكيـف تجرؤ على هـذا أيها الغبي؟

المتآمر في خضوع وخجل:

- إنـه هـو مـن يتجـرَّأ يـا سـيدي، وبعـد عزلـه لا حـق لـه في رفـع تقاريـر لك بشـأن عملـه الـذي عُـزِلَ منه.

الملك بنفس الحدة:

- أنا فقط من يحدِّد ما يجب فعله وما لايجب فعله هنا أيها الصعلوك.

ارتجـف المتآمـر، وبـدأ يتخيَّـل مصـيره إذا تكلَّم «رشـدان» وافتضح أمـره، وردَّ قائـلًا بصـوت متلعثـم مهتـز: س س سـيدي لا مـكان لهـذا الشـاب هنـا، إنـه يضيِّـع وقتـك، وفِي لحظـة اسـتلَّ سـيفه في مجلـس الملـك بغرابة وسـط ذهول الملـك والحاضريـن محـاولًا قتـل «رشـدان»، وكان القـط عـلى تأهُّـب، متوقعًا الخيانـة في أي وقـت، وقـد وقـف في طريق السـيف الذي اخترق جسـمه فوق قدميـه الخلفيتـين، ووصـل بشـكل أقـل حِـدَّةٍ إلى «رشـدان» بعـد أن انحـرف مسـاره ليطـال كتفه في جُرْح سـطحي.

وقف الملك في ذهول وبأعلى صوته:

- اقبضوا على هذا الخائن الوغد.

وفِي لحظـة دخـل الحـرَّاس ديـوان الملـك وقبضـوا عـلى المتآمـر، والجميـع في

ذهـول والملكـة والأمـيرة في صراخ وفـزع، ولَـم تملـك الأمـيرة نفسـها حتـى هرعـت إلى«رشـدان»، وأسرعـت تضمـد جراحـه وهـي تبـكي.

وألقـى «رشـدان» السـجلات عـلى الأرض، وكتفـه ينـزف وهـو ممسـك بالقط وهـو يبـكي: صديقـي صديقي..هل أنـت بخير؟

القـط بصـوت متقطـع وهـو يحتـضر: ل ل ل لا عليـك يـا سـيدي لا تحـزن، ف ف ف فقـد انتهـى دوري هنـا، وسـأخبرك عـن سرِّي، أنـا قـطٌّ مسـحور، كانـت لي رسـالة أؤديهـا تجاهـك بعـد أن أهداني حكيـم الغابـة إلى أبيك، و و و و وأخـبره أن يورثنـي لـك دون أن تـرثَ شـيئًا آخـر مـن تركـة أبيـك، و و و وأخـبره أني سـأفيدك كثـيرًا بـإذن اللـه، وسـأنقذك مـن خطـر محـدق، ووووو والآن أكمـل رسـالتك ولا تحـزن عـليَّ، فقـد انتهـى دوري هنـا، نظـر القط إلى «رشـدان» وقـد ضَعُفَـت أنفاسُـه تدريجيًّـا إلى أن فـارق الحيـاة في هـدوء.

هـذا، و«رشـدان» وجميـع الحاضريـن في بـكاء وحـزن شـديدين، والأمـيرة تضمـد جـرح «رشـدان» وهـو يسـتأذنها خجـلًا ـــ برغـم حزنـه ـــ ألّا تتعـب نفسـها فهـو بخـير.

وفِي لحظـة اسـتجمع «رشـدان» قوتـه وضمد جرحـه وحزنه على قطـه، وتكلَّم وعيناه يغرقهـا الدمع..

رشدان:

- والآن يـا سـيدي، قبـل مغـادرتي قصركم وتـركي لمنصبي الـذي أنعمتم عليَّ به جنابكـم، قـد جمعـت لكـم في هـذه الدفاتـر كل السرقـات التـي لاحظتها من واقـع السـجلات، وكلهـا مدعومـة بـأوراق عليهـا ختم القـصر، وفيهـا تفاصيل

كل ما كان من تقصير وسرقة في واردات ومصروفات المملكة، وقد جمعت لكم على مدى شهر كامل لم أَنمْ فيه إلا القليل، ما كان مجموعه أكثر من ستمائة مليون قطعة ذهبية، وهو ما يتعدى ضعفَيّ مخزون الذهب بخزينة المملكة يا سيدي، كل كلمة ذكرتها مُثْبَتة في هذه الدفاتر.

الحاجب:

- مولاي الملك، كل ما ذكره «رشدان» حقيقيًّا، وقد كنت أعتب عليه قِلَّة نومه وعمله الدؤوب ليل نهار، وكنت أشكُّ بأمر المتآمرين، وأمر هذه السرقات، ولكن صحتي لم تكن لتسعفني لكشف هذه المكائد. إن مملكتنا من أغنى الممالك في منطقتنا، ومع هذا لا نملك احتياطيًّا كافيًّا من الذهب، ولا يظهر الثراء إلا على فئة قليلة من شعبك، وهم مَنْ يسرقون قوتَ الفقراء المغلوب على أمرهم يا مولاي، الآن ظهر الحق وقد كاد أن يفقدَ هذا الشاب المخلص حياته جرَّاء بحثه، وإظهاره للحقيقة، بعد أن شكَّك المتآمرون في إخلاصه وقدرته على إدارة المهام التي أوكلتموها إليه بكل جِدٍّ وأمانةٍ، وها هو قد فقَدَ أقرب مخلوق له؛ قطه الذي رافقه رحلة كفاحه، وكان سببًا في وصوله لكم يا مولاي.

الملك في ذهول وهو لا يكاد يصدق ما يراه:

- كل هذه السنين أعيش في الخديعة والسرقة والمؤامرة، الآن عرفت سرَّ هذه التقارير الزائفة، اقترب يا ولدي «رشدان».

اقترب رشدان من الملك، فاحتضنه بحنان قائلًا:

- نعم سأعزلك من منصبك الحالي، ولكن لأوليَكَ منصبًا أكبر يا ولدي، لم أُرْزَقْ بأولاد ذكور، وأنت من اليوم ولدي ووريثي، وأعرض عليك الزواج

بابنتي إذا وافقت هي ووافقت أنت على ذلك (وكان يلاحظ بشدة ميل ابنته له).

الأميرة في خجل وحزن وقلق مجتمعين على رشدان:

- سأفعل ما تراه مناسبًا يا والدي الحبيب.

«رشدان» وقد نظر إلى الأميرة لأول مرة، ورأى جمالها وطيبتها التي لا توصف:

- هذا شرف لا أستحقه يا مولاي الملك، يكفي أنك اعتبرتني في منزلة ولدك.

الملك مقاطعًا:

- بل أنت تستحق أكثر من ذلك.

الملك معلنًا في الحاضرين:

- فليناد المنادين في المملكة بأكملها أني قرَّرتُ زواج ابنتي من «رشدان»، وأنه ولي العهد الشرعي الذي سيحكم المملكة بعد موتي، وهو من الآن في منصب ولي العهد وكبير الوزراء، أقيموا حدادًا على القط ذي الحذاء، وادفنوه في حديقة القصر، وبعد نهاية الحداد تبدأ مراسم أفراح زواج رشدان والأميرة لأربعين يومًا.

حمل «رشدان» القط ذا الحذاء متذكرًا كلماته الأخيرة بأن دورَه انتهى، وقد اختلطت لديه مشاعر الحزن على فقدان قطه صديقه، ومشاعر الفرح بلم شمله وزواجه من ابنة الملك، وكونه وريثًا له. قد دفن القطَ بيديه في حزن، وبعدها ضمَّد حزنَه، وبدأ حياته كأقرب مستشار للملك وزوجٍ لابنته، أعاد الأموال المسروقة إلى خزانة المملكة بعد تطهيرها من

كل الخونة والمتآمرين، وأسَّس لمملكة العدل والمساواة، وإنصاف الفقير عملًا بنصيحة أبيه قبل موته، التي حفظها عن ظهر قلب، ورفع من شأن أخويه اللذين أصبحا مستشاريه بعد وفاة الملك وتوليه الحكم، وأنجب الأولاد والبنات وعاش هو والأميرة في سعادة دائمة إلى ما شاء الله أن يكون.

***

تعقيب: القصة العالمية المشوَّهة، المعروفة باسم «القط ذو الحذاء»

هناك قصة منتشرة في العديد من دول العالم، وتم ترجمتها إلى العربية؛ وهي إحدى القصص الخطرة التي تحضُّ الأطفال بوضوح وسوء نية على صفة الكذب، وهي قصة تُدْعى«القط ذو الحذاء»، هذه القصة تختلف تمامًا في التفاصيل والمضمون عن القصة التي سردتها «القط الصادق ذو الحذاء».

القصة المشوَّهة كُتِبَت بأيدٍ خبيثة، وللأسف بعض الأطفال يتعلَّقون بها، وهي ترسِّخ لفكرة الكذب والخديعة والنصب للوصول إلى الهدف، متخذين من الوصول إلى الغاية مبرِّرًا لاستخدام أي وسيلة غير أخلاقية. ففكرة هذه القصة تعتمد على أن القط الذي ورثه الشاب الفقير سيقوم بالكذب على الملك مرَّاتٍ متتالية، حتى يوهمه أنَّ هذا الشاب الفقير هو أمير لدولة عظيمة، ولديه من الممتلكات ما لا حصر لها، وسيقوم بالنصب أيضًا على العملاق؛ ليقضي عليه ويستولي على قصره الذي سينسبه فيما بعد للشاب الفقير؛ هذا الشاب الذي يستسلم في نهاية الأمر إلى القط، بل يساعده في النصب على الملك؛ ليفوز بالمنصب وبقلب ابنة الملك أيضًا. ولكُم أن تتخيلوا أن قصة بهذه الأحداث، وما تعزِّز له من أخلاقيات منحطة لا تقتصر فقط على الكذب والنصب، بل تتعدى ذلك إلى تعزيز فكرة استخدام أساليب ملتوية وسهلة للوصول إلى الهدف، ولا يمكننا أن

نتصوَّر مدى خطورة تأثير مثل هذه القصص على سلوكيات الأبناء، لا سيَّمَا أن السرْدَ يميل إلى أسلوب التشويق والجذب، وبهذا ترسَخ أحداث مثل هذه القصص في عقول الأطفال لتغيِّرَ من سلوكهم بشكل مفجع، ثم نعود ونشكو من كذب الأطفال وعنادهم وسلوكياتهم التى تصل إلى مرحلة السرقة.

على الوالدين الانتباه جيدًا، ومراجعة كل القصص التي يعكف الأبناء على قراءتها أو مشاهدتها، ومن المهم جدًّا توضيح الحقائق لهم -فيما يتعلق بأيِّ سلوك سلبي يُتعرض له- من خلال هذه القصص.

وعلى الوالدين مناقشة الأبناء بشكل مستمر فيما استفادوا وفهموا مما شاهدوه أو قرؤوه؛ للتأكد من أن الرسالة التي تصل إليهم غير مشوَّهة، وأنَّ أخلاق أبنائهم لن تتأثر سلبًا بما يطالعونه من قصص.

ويجب أيضًا أن نحجبَ عنهم مثل هذه القصص التي تدعو إلى النصب والخديعة والكذب، ومن الجانب النفسي: علينا أن نعيَ جيدًا أنّ تَكرار مشاهدة الأبناء لمثل هذه القصص المنحطّة أخلاقيًّا، إنَّما سيجعلهم يتأثَّرونَ بها تدريجيًّا لتُصبح هذه السلوكيات الخطرة جزءًا من تكوينهم وسلوكهم مستقبلًا، ما لم يحصُل التدخل المبكر، وتدارُك الأمر وإصلاح الأفكار المغلوطة التي تعزِّزها مثلُ هذه القصص المشوَّهة.

ولمعالجة خصلة الكذب عند الأطفال، يجب أولًا أن ندركَ أنّه لا يُولد أحد من البشر وارثًا صفةً ذميمة، أو حاملًا لها مِن تِلقاء نفسه! إنما يُولد كل إنسان صفحةً بيضاء ناصعة، تتشكل سلبًا أو إيجابًا عبر التحديات

والمكتسبات النفسيَّة والأخلاقيَّة. إنَّ ظاهرة الكذب عند الأطفال هي أحد الأمراض السلوكيَّة التي استشْرتْ في كل المجتمعات شرقًا وغربًا.

في شهر فبراير من العام المنصرم قامت جامعة «نورث الأمريكية» بعمل دراسة نفسيَّة لظاهرة الكذب عند الأطفال، نشرت نتائجها في مجلة «علم النفس التجريبي»، وخلصتْ هذه الدراسة إلى أنّ الغالبية العظمى من الأطفال (أكثر من ٧٠٪) يغيِّرُون الحقيقة، أو يختلقون قصصًا وهمية إذا ما عُنّفوا، أو لم يُخلَقْ جوٌّ صحيٌّ لهُم لِقول الحقيقة، ومن ذلك قصصٌ تحضُّ على صفة الكذب، مثل القصة سالفة الذكر.

وللتعمق بشكل أكبر في أسباب هذه الصفة الخطيرة عند الأطفال وعلاجها، يجب أولًا تحديد أنواع الكذب عند الأطفال، وتدرُّجها في الخطورة من الأدنى إلى الأكثر:

- أُولى درجات الكذب عند الأطفال هي: إخفاء جزء من الحقيقة؛ كأنْ يحدث شِجَارٌ بين الطفل وزملائه في المدرسة، فيُعاقَب، لكنه لا يَذكر لوالديه إلا جزءًا من القصة، فيحكي -مثلًا- هذا الشِّجَارَ دون أن يذكر أنه قد عُوقِبَ.

- ثانيًا: إخفاء الحقيقة كاملةً؛ وأشهر أمثلتها أن يُخفيَ الطفل عن والديه درجات الامتحانات حالَ كونِها ضعيفةً غيرَ مرضية للوالدين.

- آخرها وأخطرها: اختلاق قصص وهمية كاذبة.

وهنا نسردُ -بإيجاز- دورَ الأسرة في علاج هذه الصفة إذا ظهرت بشكل مطَّرِد على سلوك الطفل:

- النصيحة الأولى: أن يتعوَّد الأب والأم على عدم معاقبة الطفل بشكل مبالغ فيه حالَ قولِهِ الحقيقة؛ لأن الطفلَ يلجأ عادةً إلى الكذب كأسلوب دفاعي نفسي ليتجنب العقاب؛ أيْ إنَّه في حالة خطأ الطفل واعترافه بخطئه، يجب أولًا أن نشكرَهُ على عدم إخفاء الحقيقة، ثم نوضِّح له تَبِعاتِ هذا الخطأ بشكل مفصَّل، على أن ينتهي الحديث بوعد من الطفل بعدم تَكرار هذا الخطأ مرة أخرى.

- يلجأ الطفل أيضًا للكذب ليَلفت الانتباه؛ كأنْ يحكيَ مثلًا أنه قد قام ببطولات، أو كُرِّمَ في المدرسة -على غير الحقيقة بالطبع- وسبب ذلك هو إهمال الوالدين أو انشغالهم المُفرط، وعدم تواصلهم مع الطفل بشكل إيجابي، فيلجأ إلى الكذب كحيلة لجذب الانتباه.

- أهم وسائل علاج الكذب عند الأطفال وأخطرها: أن تكون الأسرة ذاتها قدوة للطفل في الكذب؛ لأن الطفل يتأثر -بشكل رهيب- بتصرفات الوالدين، سلبية كانت أو إيجابية، فلا يصحُّ أبدًا أن يكذب الوالدان أمام الطفل، ويطلُبا منه عدم الكذب، وهما القدوة! إنها حَلْقةٌ متصلة وبُنيانٌ مترابط الأركان، إذا اختلَّ أساسه خرَّ هاويًا بأكمله. القدوة والتعامل مع الأطفال بشكل سويّ صحيّ، وعدم تعريضهم لقصص مشوَّهة، هو مِفتاحٌ لحلّ كل المشاكل السلوكية للأبناء، وكذا النفسية؛ لِنُنَشِّئَ جيلًا على أسس قويمة، نافعًا لوطنه ثم أسرته، قبلَ نفسِهِ!